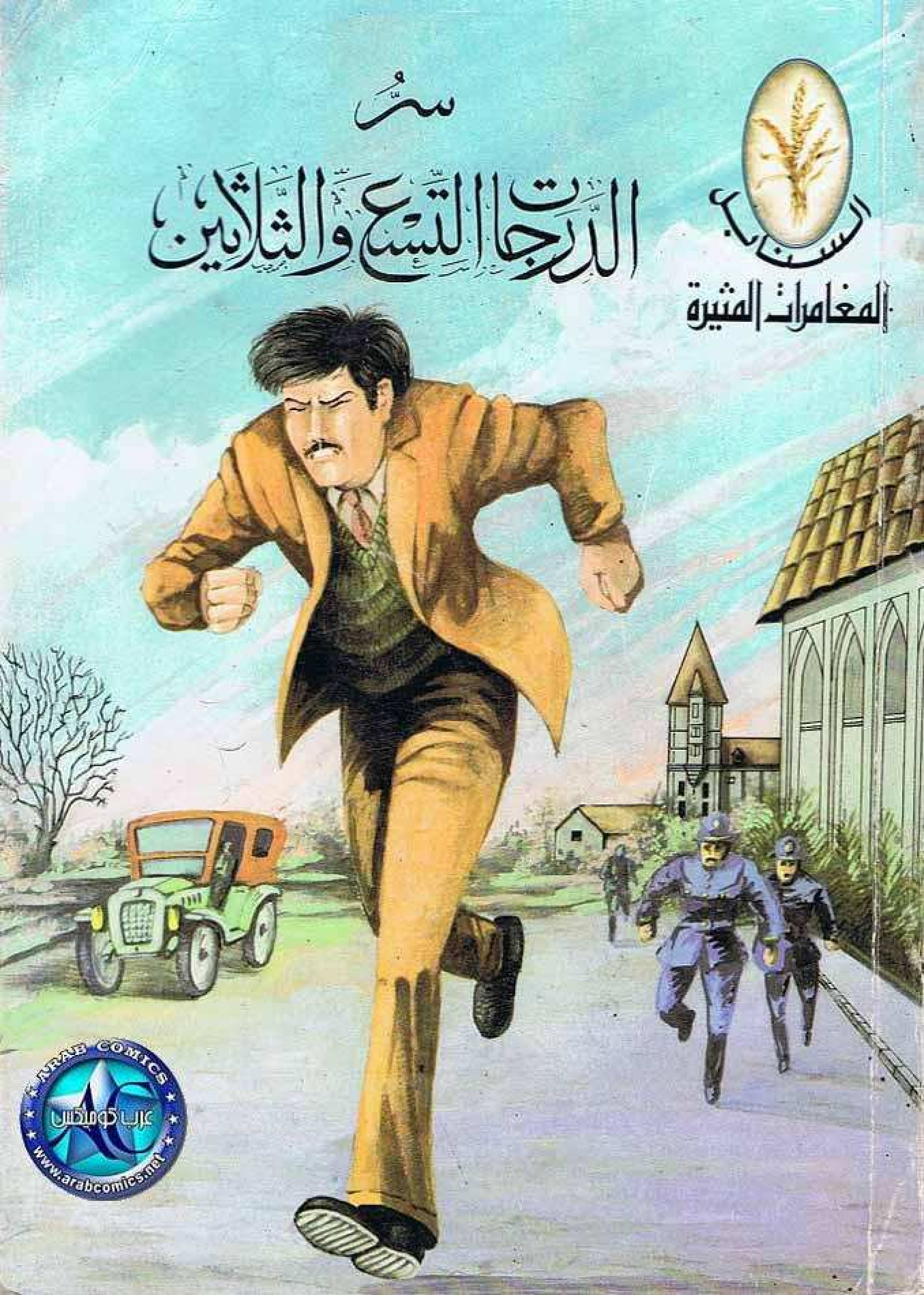
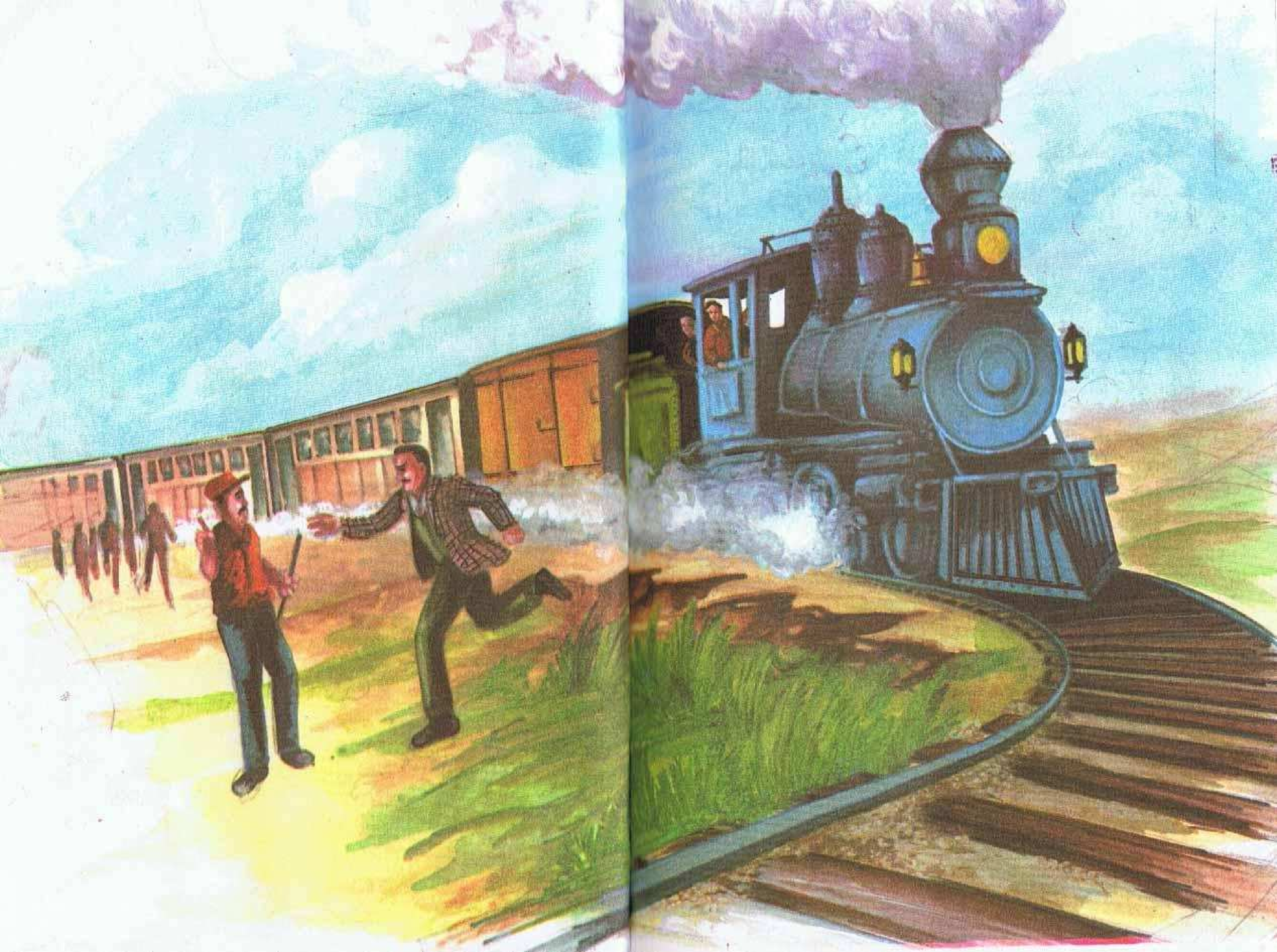
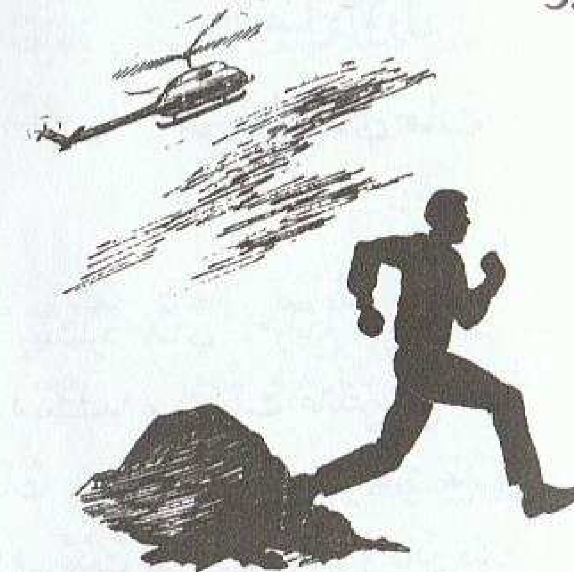

سر
الدرجات التسع والثلاثين
المغامرات المثيرة
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net





المغامرات المثيرة

سر الدرجات التسع والثلاثين



تأليف : جون بكان

أعدها بالعربية : الشريف خاطر

رسوم : حسن عبد الستار

مكتبة لبنان
بيروت

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩١

رقم الإيداع : ٨٣٧٨ / ١٩٩٠

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٠١٣ - ٣

طبع بمطابع دار المعارف

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الرَّجُلُ الّذي ماتَ

اِسْمي رِيتْشارْد هَنّاي ، وَأَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ سَبْعَةً وَثَلاثينَ عاماً. وُلِدْتُ في اسكُتْلَندا ، وَانْتَقَلَتْ عائِلَتي في عام ١٨٨٣ إلى روديسْيا. وَهُناكَ نَشَأتُ ، وَعَمِلْتُ بِاجْتِهادٍ لِمُدَّةِ عِشْرينَ عاماً . وَفي مارِسَ عامَ ١٩١٤ عُدْتُ إلى بريطانيا ، وَكانَ ذلِكَ قَبْلَ نُشوبِ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأولى بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ . وَأَحْضَرْتُ مَعي مالاً وَفيراً بُغْيَةَ قَضاءِ إجازَةٍ مُمْتِعَةٍ ؛ فَلَقَدْ كانَتْ بريطانيا – في الواقِعِ – مِحْوَرَ كُلِّ أَحْلامي وَخُطَطي . وَكُنْتُ آمُلُ أَنْ أَبْقى فيها بَقِيَّةَ حَياتي .

وَفي شَهْرِ مايو اسْتَأجَرْتُ شَقَّةً بِلَنْدَن عِشْتُ فيها . وَذاتَ مَساءٍ كُنْتُ وَحْدي أَقْرَأُ الصَّحيفَةَ ، فَعَرَفْتُ أَنَّ ثَمَّةَ بَعْضَ الاضْطِراباتِ في

الشَّرْقِ ، وَ قَرَأْتُ فيها مَوْضوعاً عَنْ كارُولِيدِس ، رَئيس وُزَراءِ اليونانِ.

قُلْتُ لِنَفْسي : « إنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ ، وَشَريفٌ أَيْضاً . وَرُبَّما يَكونُ أَقْوى رئيس وُزَراءَ في أورُبّا ، وَلكِنَّ الأَلْمانَ يَكْرَهونَهُ .»

وَفَجْأَةً سَمِعْتُ طَرْقاً خَفيفاً عَلى البابِ ، فَتَرَكْتُ الصَّحيفَةَ وَفَتَحْتُ البابَ ، فَوَجَدْتُ رَجُلاً يَقِفُ خارِجَهُ ، وَعَرَفْتُهُ في الحالِ . لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ اسْمَهُ ، وَلكِنَّهُ كانَ يَسْكُنُ في الطّابَقِ العُلْوِيِّ . وَكانَ نَحيلاً ذا عَيْنَيْنِ زَرْقاوَيْنِ لامِعَتَيْنِ .

بادَرَني قائِلاً : « إنَّني أَسْكُنُ في الطّابَقِ العُلْوِيِّ . هَلْ لي أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ ؟ أَ تَسْمَحُ لي بِالدُّخولِ ؟»

دَعَوْتُهُ لِلدُّخولِ ، وَأَغْلَقْتُ البابَ .

قالَ : « أنا آسِفٌ جِدًّا ، لكِنَّني أُعاني مُشْكِلَةً ، فَهَلّا ساعَدْتَني ؟»

قُلْتُ : « بِكُلِّ سُرورٍ ، وَسَأُنْصِتُ لَكَ ، لكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَعِدَكَ بِأَكْثَرَ مِنْ هذا .»

وَلاحَظْتُ أَنَّهُ عَصَبِيٌّ ؛ إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقِفَ ساكِناً ؛ لِذا قُمْتُ بِإِعْدادِ كوبٍ مِنَ العَصيرِ لَهُ ، فَشَرِبَهُ دُفْعَةً واحِدَةً ، وَعِنْدَما وَضَعَ



الكوبَ كَسَرَهُ مِنْ فَرْطِ اضْطِرابِهِ .

قالَ : « مَعْذِرَةً ؛ فَأَنا مُضْطَرِبٌ اللَّيْلَةَ بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَثَمَّةَ سَبَبٌ قَوِيٌّ لِذلِكَ . وَأَنْتَ ، يا سَيِّدي ، تَبْدو رَجُلاً شَريفاً وَشُجاعاً أَيْضاً. وَأَنا واقِعٌ في مُشْكِلَةٍ عَويصَةٍ وَفي حاجَةٍ إِلى صَديقٍ .»

قُلْتُ : « قُصَّها عَلَيَّ ، وَبَعْدَ ذلِكَ أُعْطيكَ رَأْيي .»

قالَ : « أَنا أَمْريكِيٌّ ، وَجِئْتُ إِلى أوروبّا مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ ؛ لأَعْمَلَ مُراسِلاً لإِحْدى الصُّحُفِ الأَمْريكِيَّةِ . وَتَعَلَّمْتُ عِدَّةَ لُغاتٍ ، وَ وَقَفْتُ عَلى الكَثيرِ مِنْ أُمورِ السِّياسَةِ الأوروبِّيَّةِ . كَما اكْتَشَفْتُ خُطَطَ الأَلْمانِ لِلْحَرْبِ ، وَعَرَفْتُ مَجْموعَةً مِنَ الجَواسيسِ الأَلْمانِ . وَالْمُشْكِلَةُ الآنَ أَنَّ هؤلاءِ الجَواسيسَ يُطارِدونَني ، وَهذِهِ هِيَ الْمُشْكِلَةُ . وَإِذا كُنْتَ تَعْرِفُ شَيْئاً عَنِ السِّياسَةِ ، يا سَيِّدي ، فَسَوْفَ تَفْهَمُ ذلِكَ . إِنَّ أوروبّا توشِكُ عَلى الدُّخولِ في حَرْبٍ ، وَثَمَّةَ رَجُلٌ واحِدٌ فَحَسْبُ يَسْتَطيعُ إِيقافَ تِلْكَ الحَرْبِ .»

سَأَلْتُهُ : « مَنْ هُوَ ؟»

أَجابَني : « كارولِيدِس ، رَئيسُ وُزَراءِ اليونانِ .»

قُلْتُ : « لَقَدْ كُنْتُ أَقْرأُ عَنْهُ - حالاً - مَوْضوعاً في الصَّحيفَةِ

المسائيَّةِ .»

قالَ : « أجَلْ ، فالألمانُ يُريدونَ قَتْلَهُ ، وَسيَقتُلونَني أيْضاً إذا استَطاعوا . وَسوفَ يَجيءُ كارولِيدِس إلى لَنْدَن الشَّهْرَ القادمَ ؛ فَقَدْ وُجِّهَتْ إلَيْهِ الدَّعْوَةُ لِزِيارَةِ وَزارَةِ الخارِجيَّةِ في ١٥ يُونْيَه (حزيران) ، فَاخْتاروا ذلِكَ اليَوْمَ لاغْتِيالِهِ . وَأنا الرَّجُلُ الوَحيدُ الَّذي يَسْتَطيعُ إنْقاذَهُ .»

سَألْتُهُ : « كَيْفَ أَسْتَطيعُ مُساعَدَتَكَ ، يا سَيِّدُ ... »

أجابَني : « اِسْمي اسْكَدر . فرانكلين ب. اسْكَدر . لَقَدْ قُلْتُ لَكَ تَوّاً ، يا سَيِّدي ، إنَّ أولئِكَ الجَواسيسَ يَوَدّونَ قَتْلي . وَكُنْتُ أظُنُّ أنّني في أمانٍ تامٍّ في لَنْدَن ؛ إذِ اعْتَقَدْتُ أنَّ أعْدائي لَمْ يَتَعَقَّبوني إلى هُنا . لكِنْ مَساءَ أمس وَجَدْتُ بِطاقَةً في صُنْدوقِ بَريدي ، عَلَيْها اسْمُ رَجُلٍ هُوَ ألَدُّ أعْدائي .»

قُلْتُ : « يَنْبَغي أنْ تُبْلِغَ وَزارَةَ الخارِجيَّةِ . وَلَسَوْفَ يُساعِدونَكَ ، وَرُبَّما يُنْقِذونَ كارُوليدِس أيْضاً .»

قالَ : « لَيْسَ ثَمَّةَ وَقْتٌ لِذلِكَ ؛ فَأعْدائي يَعْلَمونَ أنّني في هذا المَبْنى ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أنَّهُمْ يَنْتَظِرونَني بِالخارِجِ لِلإمْساكِ بي . هَلْ

تَعْتَقِدُ أنَّهُ بِإمْكاني أنْ أخْتَبِئَ في شَقَّتِكَ ، يا سَيِّدي ؟»

قُلْتُ : « أرى أنَّهُ مِنَ الأفْضَلِ أنْ أتأكَّدَ مِنْ قِصَّتِكَ أوَّلاً . سَأخْرُجُ لألْقِيَ نَظْرَةً ، فَإذا وَجَدْتُ ما يُريبُ ، فَلَنْ أتَخَلّى عَنْ مُساعَدَتِكَ .»

غادَرْتُ الشَّقَّةَ وَخَرَجْتُ إلى الشّارِعِ . وَكانَ ثَمَّةَ رَجُلٌ يَقِفُ خارِجَ المَبْنى ، رَفَعَ يَدَهُ عِنْدَما رَآني . وَتَطَلَّعْتُ حَوْلي بِسُرْعَةٍ ، فَرَأيْتُ وَجْهاً يُطِلُّ مِنْ نافِذَةٍ بِالمَبْنى المُقابِلِ ، وَسُرْعانَ ما أجابَ إشارَةَ الرَّجُلِ ، وَاخْتَفى . وَاشْتَرَيْتُ صَحيفَةً مِنْ ناصيَةِ الشّارِعِ وَعُدْتُ ثانيَةً إلى الشَّقَّةِ .

قُلْتُ لَهُ: « لا بَأسَ ، يا سَيِّدُ اسْكَدر ، يُمْكِنُكَ البَقاءُ هُنا اللَّيْلَةَ ؛ فَقَدْ تَأكَّدْتُ مِنْ قِصَّتِكَ . فَثَمَّةَ شَخْصٌ يَقِفُ بِالخارِجِ يَبْعَثُ عَلى الرِّيبَةِ ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أنَّ أعْداءَكَ يُقيمونَ في البَيْتِ المُقابِلِ ، فَلَقَدْ رَأيْتُ وَجْهاً بِالنّافِذَةِ وَسُرْعانَ ما اخْتَفى .»

بَقِيَ اسْكَدر في شَقَّتي عِدَّةَ أيّامٍ في هُدوءٍ . وَعِنْدَما كُنْتُ أخْرُجُ كانَ يُصابُ بِاضْطِرابٍ شَديدٍ . وَكُنْتُ ألاحِظُ أنَّ شَخْصاً يَقِفُ دائِماً خارِجَ المَبْنى ، كَما كُنْتُ أرى وَجْهاً يُراقِبُ مِنَ النّافِذَةِ مَرّاتٍ قَليلَةً ، لكِنَّ أحَداً لَمْ يَحْضُرْ إلى الشَّقَّةِ .

وَكَتَبَ اسْكَدر بَعْضَ المُلاحَظاتِ المُخْتَصَرَةِ في مُفَكِّرَةٍ صَغيرَةٍ سَوْداءَ ، وَعَدَّ الأيّامَ حَتّى اليَوْمِ الخامِسَ عَشَرَ مِنْ يُونْيَه ، وَ وَضَعَ عَلامَةً في المُفَكِّرَةِ على كُلِّ يَوْمٍ انْقَضى .

قالَ لي ذاتَ يَوْمٍ : « إنَّ الوَقْتَ يَمُرُّ بِسُرْعَةٍ ، يا هَنّاي ، وَإذا اسْتَمَرّوا في مُراقَبَةِ المَنْزِلِ ؛ فَلَنْ يَكونَ في اسْتِطاعَتي الهَرَبُ ، وَإذا أصابَني مَكْروهٌ ، فَهَلْ تُواصِلُ المَعْرَكَةَ ؟»

أحْبَبْتُ مُغامَراتِ اسْكَدر ؛ فَقَدْ كانَتْ قِصَّتُهُ مُثيرَةً . وَلكِنْ لأنَّني لَسْتُ مِنَ المُهْتَمّينَ بِالسِّياسَةِ ؛ لَمْ أكُنْ أصْغي إلَيْهِ بِانْتِباهٍ . وَاصَلَ حَديثَهُ ، وَحَكى لي عَنِ امْرَأةٍ تُدْعى جوليا تشيكَنّي ، وَهِيَ جاسوسَةٌ ، فَقالَ : « إنَّها عَدُوٌّ لَدودٌ ، يا هَنّاي ، لكِنَّ الرَّجُلَ العَجوزَ أسْوَأُهُم .»

كانَ هذا الرَّجُلُ العَجوزُ هُوَ عَدُوَّ اسْكَدر الرَّئيسِيَّ ، فَأخَذَ يَصِفُهُ بِدِقَّةٍ شَديدَةٍ ، فَقالَ : « هُوَ شَخْصٌ غَريبٌ ، لكِنَّ لَهُ صَوْتَ شابٍّ . أمّا عَيْناهُ ، يا هَنّاي ، لَوْ رَأيْتَ عَيْنَيْهِ ، فَلَنْ تَنْساهُما أبَداً ! إنَّهُما عَيْنانِ صَغيرَتانِ لامِعَتانِ مِثْلُ عَيْنَيْ طائِرٍ .»

وَتَحَدَّثَ طَويلاً في ذلِكَ اليَوْمِ ، وَلكِنّي لا أسْتَطيعُ أنْ أتَذَكَّرَ كُلَّ ما قالَهُ ، غَيْرَ أنَّني لاحَظْتُ أنَّهُ كانَ أكْثَرَ اضْطِراباً مِنْ ذي قَبْلُ .

وَفي المَساءِ خَرَجْتُ لِتَناوُلِ العَشاءِ مَعَ صَديقٍ . وَعِنْدَما عُدْتُ كانَتِ السّاعَةُ العاشِرَةَ وَالنِّصْفَ ، وَفَتَحْتُ بابَ الشَّقَّةِ وَدَخَلْتُ . كانَتِ الأنْوارُ مُطْفَأةً ، وَهذا ما جَعَلَ الأمْرَ يَبْدو غَريباً . وَأضَأْتُ الأنْوارَ ، وَتَطَلَّعْتُ حَوْلي ، لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أحَدٌ ؛ فَاعْتَقَدْتُ أنَّ اسْكَدر أوى إلى الفِراشِ مُبَكِّراً .

وَدَخَلْتُ الحُجْرَةَ المُجاوِرَةَ ، فَرَأيْتُ شَيْئاً في الرُّكْنِ . وَلِلَحْظَةٍ لَمْ أتَعَرَّفْ عَلَيْهِ ، لكِنَّني فَجْأةً أحْسَسْتُ بِالبُرودَةِ وَالوَهَنِ ، وَأرَدْتُ أنْ أفْتَحَ فَمي وَأصْرُخَ ، لكِنَّني عَجَزْتُ عَنْ أنْ أتَحَرَّكَ أوْ أقولَ شَيْئاً .

كانَ اسْكَدر مُلْقًى عَلى ظَهْرِهِ في الرُّكْنِ ، وَقَدْ أُغْمِدَتْ في صَدْرِهِ سِكّينٌ طَويلَةٌ لَمْ يَظْهَرْ مِنْها سِوى مِقْبَضِها . وَكانَ المِسْكينُ مُلْتَصِقاً بِالأرْضِ .

الفَصلُ الثّـاني

بائِـعُ اللّبَـن

أخيراً جلَسْتُ وأنا أشعُرُ بِالغَثَيانِ الشّديدِ . ولَعَلّي جلَسْتُ خَمسَ دَقائِقَ أحْسَسْتُ بَعْدَها بالخَوْفِ . وكُنْتُ في غايَةِ الاضْطِرابِ عِنْدَما قُمْتُ بِتَغْطِيَةِ جُثْمانِ اسْكَدر بِمِفْرَشِ المِنْضَدَةِ ، ولكِنّ مَنْظَرَ مِقْبَضِ السّكّينِ كانَ لا يَزالُ يَتَراءى أمامي ، ويُشيرُ إليّ مِثْلَ الأصْبَعِ ، فَتَناوَلْتُ كوباً مِنَ العَصيرِ وجَلَسْتُ ثانِيَةً لأفَكّرَ .

لَقَدْ قُتِلَ اسْكَدر ، وجُثْمانُهُ المُسَجّى يُؤَكّدُ صِحّةَ رِوايَتِهِ . لَقَدْ قَتَلَهُ أعْداؤُهُ لأنّهُ كانَ يَعْرِفُ خُطَطَهُمْ . قُلْتُ لِنَفْسي : « سَوْفَ يَقْتُلونَني بَعْدَهُ ؛ فَهُمْ يَعْرِفونَ أنّهُ يَسْكُنُ بِالطّابَقِ العُلْوِيّ ، ويَعْرِفونَ أيْضاً أنّهُ كانَ في شَقّتي لِمُدّةِ ثَلاثَةِ أيّامٍ أوْ أرْبَعَةٍ ، وسَوْفَ يَسْتَنْتِجونَ أنّهُ أخْبَرَني بِخُطَطِهِمْ .»

ما الّذي أسْتَطيعُ أنْ أفْعَلَهُ ؟ بِإمْكاني أنْ أذْهَبَ فَوْراً إلى الشُّرْطَةِ وأبْلِغَهُمْ بِالقِصّةِ . ولكِنّ رِجالَ الشُّرْطَةِ قَدْ يَرْتابونَ فِيّ لَوْ أنّني أخْبَرْتُهُمْ بِمَقْتَلِ اسْكَدر ، وسَيَعْتَقِدونَ أنّني أنا الّذي قَتَلْتُهُ ، ومِنَ المُمْكِنِ أنْ يُحَمّلوني مَسْئوليّةَ قَتْلِهِ .

فَكّرْتُ في الأمْرِ لِمُدّةٍ طَويلَةٍ ، ثُمّ تَوَصّلْتُ إلى خُطّةٍ ؛ فَرَغْمَ أنّني لَمْ أكُنْ أعْرِفُ اسْكَدر مَعْرِفَةً جَيّدَةً ، إلاّ أنّني أحْبَبْتُهُ ، واسْتَمْتَعْتُ بِالمُغامَرَةِ مَعَهُ أيْضاً ، ورَغِبْتُ في مُواصَلَةِ مُهِمّتِهِ . قُلْتُ لِنَفْسي : « مِنَ المُمْكِنِ أنْ أكْتُبَ إلى رَئيسِ الوُزَراءِ ، أوْ إلى وِزارَةِ الخارِجِيّةِ ، لكِنْ رُبّما لا يَكونُ ذلِكَ ضَرورِيّاً . سَأرْحَلُ لِعِدّةِ أسابيعَ ،



ثُمَّ أعودُ ثانيةً إلى لَنْدَن وَأتوجَّهُ إلى قِسْمِ الشُّرْطَةِ .»

وَتَوجَّهْتُ ناحِيَةَ جُثْمانِ اسْكَدر ، وَرَفَعْتُ عَنْهُ المِفْرَشَ ، وَبَحَثْتُ في جُيوبِهِ عَنِ المُفكِّرَةِ الصَّغيرَةِ الَّتي كانَ يَكْتُبُ فيها مُلاحَظاتِهِ . وَلكِنَّ المُفَكِّرَةَ كانَتْ قَدِ اخْتَفَتْ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَوْراقٌ عَلى الإطْلاقِ .

وَفَتَحْتُ مَكْتَبي وَأَخرَجْتُ خَريطَةً لِبريطانْيا . وَفَكَّرْتُ في أَنَّ اسْكُتْلَنْدا هِيَ خَيْرُ مَكانٍ لِتَنْفيذِ خُطَّتي ؛ فَلَقَدْ وُلِدْتُ هُناكَ وَما زِلْتُ أَتَكَلَّمُ لَهْجَةَ أَهْلِها . وَفَكَّرْتُ في الذَّهابِ إلى أَلْمانْيا ، خاصَّةً أَنّني قَدْ تَعَلَّمْتُ الأَلْمانِيَّةَ في رُودِيسْيا إلى دَرَجَةِ الإتْقانِ . وَلكِنْ رُبَّما كانَتِ اسْكُتْلَنْدا هِيَ أَفْضَلَ مَكانٍ .

وَ اخْتَرْتُ غالوايْ ؛ وَهِيَ مِنْطَقَةٌ بَرِّيَّةٌ في الرِّيفِ ، بِها مُدُنٌ كَبيرَةٌ ، كَما أَنَّها لَيْسَتْ بَعيدَةً . وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ثَمَّةَ قِطارًا يَذْهَبُ إلى اسْكُتْلَنْدا في الصَّباحِ ، وَيُغادِرُ لَنْدَن في السّابِعَةِ وَعَشْرِ دَقائِقَ . وَلكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُني الخُروجُ مِنَ الشَّقَّةِ ؟ لَنْ يَكونَ في اسْتِطاعَتي الهَرَبُ ما دامَ أَعْداءُ اسْكَدر مَوْجودينَ خارِجَ المَنْزِلِ .

وَفَجْأَةً خَطَرَتْ لي فِكْرَةٌ رائِعَةٌ ؛ فَفي السّادِسَةِ وَالنِّصْفِ مِنْ كُلِّ صَباحٍ ، يَأْتي بائِعُ اللَّبَنِ ، وَهُوَ شابٌّ في مِثْلِ حَجْمي ، لَهُ شارِبٌ

أَسْوَدُ قَصيرٌ ، وَيَرْتَدي مِعْطَفًا أَبْيَض وَقُبَّعَةً بَيْضاءَ . وَكانَتْ فِكْرَتي أَنْ أَقْتَرِضَ مِنْهُ مَلابِسَهُ وَ وِعاءَ اللَّبَنِ ، بَعْدَها أَسْتَطيعُ الهَرَبَ مِنَ المَنْزِلِ في هَيْئَةِ بائِعِ اللَّبَنِ .

وَأَوَيْتُ إلى الفِراشِ وَنُمْتُ ساعاتٍ قَليلَةً . وَفي الصَّباحِ اغْتَسَلْتُ وَقُمْتُ بِقَصِّ شارِبي بِحِرْصٍ ، وَكانَ طَويلاً أَسْوَدَ ، فَجَعَلْتُهُ قَصيراً . وَأَحْصَيْتُ نُقودي ، وَ وَضَعْتُ خَمْسينَ جُنَيْهًا في جَيْبي . وَبَيْنَما كُنْتُ أَعِدُّ نَفْسي ، تَذَكَّرْتُ التَّبَغَ ؛ فَدَسَسْتُ أَصابِعي داخِلَ عُلْبَةِ التَّبَغِ الكَبيرَةِ ، فَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ صُلْبٍ تَحْتَ التَّبَغِ ، وَكانَ مُفَكِّرَةَ اسْكَدر السَّوْداءَ ، فَوَضَعْتُها في جَيْبي .

وَكانَ ذلِكَ أَمْرًا حَسَنًا ، فَقَدْ أَخْفاها اسْكَدر في عُلْبَةِ التَّبَغِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَعْداؤُهُ أَنْ يَعْثُروا عَلَيْها .

وَكانَتِ السّاعَةُ قَدْ قارَبَتْ عَلى السّابِعَةِ إلّا ثُلُثًا ، وَبائِعُ اللَّبَنِ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ . وَلكِنْ فَجْأَةً سَمِعْتُ جَلَبَةَ وِعاءِ اللَّبَنِ عَلى السُّلَّمِ ، فَفَتَحْتُ البابَ .

قُلْتُ لَهُ : « اُدْخُلْ أَرْجوكَ ! فَأَنا أُريدُ التَّحَدُّثَ إلَيْكَ .»

دَخَلَ الشَّقَّةَ ، وَأَغْلَقْتُ البابَ .

قُلْتُ : « أَصْغِ إلَيَّ . أَنْتَ إِنْسانٌ طَيِّبٌ ، وَأَوَدُّ أَنْ تُساعِدَني .»



وَأَخْرَجْتُ جُنَيْهًا ذَهَبِيًّا مِنْ جَيْبِي ، وَأَضَفْتُ قائِلاً : « لَوْ وافَقْتَ فَسَأُعْطيكَ هذا .»

عِنْدَما رَأى الجُنَيْهَ اتَّسَعَتْ عَيْناهُ ، وَسَأَلَني : « ما الَّذي تُريدُ مِنّي أَنْ أَفْعَلَهُ ؟»

قُلْتُ : « أُريدُ أَنْ أَقْتَرِضَ مَلابِسَكَ وَ وِعاءَ اللَّبَنِ بِضْعَ دَقائِقَ .»

ضَحِكَ وَقالَ : « وَمِنْ أَجْلِ أَيِّ شَيْءٍ تُريدُهُما ؟»

أَجَبْتُ : « أَرْجوكَ ! لَقَدْ تَذَكَّرْتُ شَيْئًا ، لكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَشْرَحَهُ لَكَ الآنَ . دَعْني آخُذْهُما وَسَأَعودُ خِلالَ عَشْرِ دَقائِقَ .»

وَ وَضَعْتُ الجُنَيْهَ الذَّهَبِيَّ في يَدِهِ .

قالَ : « لا مانِعَ ؛ فَأَنا أَيْضًا أُحِبُّ المُزاحَ قَليلاً .»

اِرْتَدَيْتُ مَلابِسَهُ ، وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّقَّةِ ، وَأَغْلَقْتُ البابَ وَرائي قائِلاً : « لا تَتْبَعْني ؛ سَأَعودُ حالاً .»

وَنَزَلْتُ السُّلَّمَ وَخَرَجْتُ إلى الشّارِعِ . وَأَحْدَثْتُ جَلَبَةً بِوِعاءِ اللَّبَنِ ، وَبَدَأْتُ أُغَنّي . تَطَلَّعَ إِلَيَّ الرَّجُلُ الَّذي كانَ يَقِفُ بِالخارِجِ ، لكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا . نَظَرْتُ إلى البَيْتِ المواجِهِ فَرَأَيْتُ الوَجْهَ

مَوْجوداً في النّافِذَةِ مَرَّةً أخرى . وَانْعَطَفْتُ في شارِعٍ آخَرَ ، وَرُحْتُ أجْري ، ثُمَّ خَلَعْتُ مَلابِسَ بائِعِ اللَّبَنِ ، وَ وَضَعْتُها هِيَ وَالوِعاءَ بِجِوارِ الحائِطِ .

وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى مَحَطَّةِ السِّكَكِ الحَديدِيَّةِ كانَتِ السّاعَةُ السّابِعَةَ وَعَشْرَ دَقائِقَ ، وَكانَ القِطارُ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ خارِجاً مِنَ المَحَطَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ وَقْتٌ لِشِراءِ تَذْكِرَةٍ ، فَجَرَيْتُ وَأَمْسَكْتُ بِمِقْبَضِ أَحَدِ الأَبْوابِ وَ وَجَدْتُهُ مَفْتوحاً ؛ فَصَعِدْتُ إلى القِطارِ .

وَسُرْعانَ ما جاءَ مُحَصِّلُ التَّذاكِرِ ، وَغَضِبَ مِنّي ، وَكانَ عَلَيَّ أنْ أَنْتَحِلَ بَعْضَ الأَعْذارِ التي قَبِلَها ، وَصَرَفَ لي تَذْكِرَةً إلى نِيوتُون – سْتِيوارْت بِغالُواي .

الفَصْلُ الثّالِثُ

صاحِبُ الفُنْدُق

أَمْضَيْتُ طَوالَ ذلِكَ اليَوْمِ مُسافِرًا إلى الشَّمالِ . وَتَوَقَّفَ القِطارُ عِنْدَ مَحَطَّةِ لِيدْز ، حَيْثُ اشْتَرَيْتُ شَيْئًا مِنَ الطَّعامِ وَصُحُفَ الصَّباحِ . وَجاءَ مُحَصِّلُ تَذاكِرَ آخَرُ وَأَخْبَرَني أَنَّهُ يَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أُغَيِّرَ القِطارَ في مَحَطَّةِ دَمْفريز .

قَرَأْتُ الصُّحُفَ ، وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ فيها – بِالطَّبْعِ – أَيُّ شَيْءٍ عَنْ مَقْتَلِ اسْكَدر ؛ فَقَدْ كانَ الوَقْتُ مُبَكِّرًا جِدًّا لاكْتِشافِ الجَريمَةِ . بَعْدَ ذلِكَ أَخْرَجْتُ مُفَكِّرَةَ اسْكَدر الصَّغيرَةَ ، وَكانَتْ مَليئَةً بِالأَرْقامِ فَضْلاً عَنْ بَعْضِ أَسْماءٍ غَريبَةٍ ؛ مِثْلِ هوفْغارد ، أڤوكادو ، پاڤيا . وَلاحَظْتُ أَنَّ كَلِمَةَ پاڤيا تَكَرَّرَتْ عِدَّةَ مَرّاتٍ .

وَكانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّها نَوْعٌ مِنَ الشَّفَراتِ . وَلَمّا كُنْتُ مَشْغوفاً

دائماً بِفَكِّ رُمُوزِ الشّفراتِ ؛ فَقَدْ أَخَذْتُ أَفْحَصُ هذهِ الشَّفْرَةَ بِعنايَةٍ .
لَقَدْ كَتَبَ اسْكدر أرْقاماً بَدَلاً مِنَ الحُروفِ . لكِنْ ماذا كانَتْ تَعني
هذِهِ الأَسْماءُ ، خاصَّةً أنَّ بَعْضَها كانَ أَسْماءَ مُدُنٍ ؟ تُرى هَل
اسْتَعْمَلَها بَديلاً عَنْ أَسْماءِ بَعْضِ النّاسِ ؟ وَلِمِثْلِ هذهِ الشَّفَراتِ عادَةً
مِفْتاحٌ لِحَلِّ الرُّموزِ ؛ لِذلِكَ حاوَلْتُ أَنْ أُخَمِّنَ هَذا المِفْتاحَ . وَكانَ
مِنَ الواضِحِ أَنَّ كَلِمَةَ « هوفْغارْد » لَيْسَتْ هِيَ مِفْتاحَ حَلِّ الرُّموزِ ؛
لأَنَّها لا تَتَوافَقُ مَعَ بَقِيَّةِ الشَّفْرَةِ . وَحاوَلْتُ مَعَ باقي الكَلِماتِ ،
لكِنَّها لَمْ تَتَوافَقْ مَعَ الشَّفْرَةِ .

وَاسْتَغْرَقْتُ في النَّوْمِ لِمُدَّةِ ساعَةٍ أَوْ ساعَتَيْنِ عِنْدَما أَيْقَظَني صَوْتُ
المُحَصِّلِ : « أَسْرِعْ ، يا سَيِّدي ، يَنْبَغي أَنْ تُغَيِّرَ القِطارَ هُنا . »

وَنَظَرْتُ مِنَ النّافِذَةِ ، فَوَجَدْتُني في دَمْفريز ، وَالقِطارُ قَدْ تَوَقَّفَ .
وَنَزَلْتُ مِنْهُ ، وَعَبَرْتُ المَحَطَّةَ إلى قِطارِ غالْواي .

وَكانَ القِطارُ مُزْدَحِماً جِدًّا ، وَدارَ حِوارٌ طَريفٌ بَيْني وَبَيْنَ مُزارِعٍ
ظَنَّ أَنَّني مُزارِعٌ مِثْلُهُ . وَتَحَدَّثْنا عَنِ الماشِيَةِ ، وَالمَحاصيلِ ، وَالأَسْعارِ .
وَنَزَلَ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ في مَحَطّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، لكِنَّني واصَلْتُ . وَفي
السّاعَةِ الخامِسَةِ تَوَقَّفَ القِطارُ في مَحَطَّةٍ صَغيرَةٍ ، فَشَعَرْتُ بِأَنَّ المَكانَ
يَروقُني جِدًّا ، وَلا أَسْتَطيعُ تَذَكُّرَ اسْمِهِ ، لكِنَّهُ كانَ مَكاناً هادِئاً
وَبَعيداً جِدًّا عَنْ لَنْدَن .

وَنَزَلْتُ مِنَ القِطارِ ، وَأَخَذَ طِفْلٌ التَّذْكِرَةَ مِنّي . وَكانَ الوَقْتُ
مَساءً ، وَالجَوُّ رائِعاً ، حَتّى إِنَّني أَحْسَسْتُ بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ . وَسِرْتُ
وَالطَّريقَ ، رُبَّما لِمَسافَةِ كيلو مِتْرَيْن ، ثُمَّ انْعَطَفْتُ في طَريقٍ جانِبِيٍّ
يُؤَدّي إلى الوادي . وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى وَصَلْتُ إلى بَيْتٍ
صَغيرٍ ، وَكانَتْ تَقِفُ أَمامَ بابِهِ امْرَأَةٌ ، قُمْتُ بِتَحِيَّتِها ، فَرَدَّتْ عَلَيَّ
بِأَدَبٍ جَمٍّ .

سَأَلْتُها : « هَلّا سَمَحْتِ لي بِقَضاءِ اللَّيْلَةِ هُنا ؟ »

أَجابَتْ : « عَلى الرُّحْبِ وَالسَّعَةِ ؛ تَفَضَّلْ . »

وَسُرْعانَ ما مَدَّتْ أَمامي مائِدَةً حافِلَةً ، وَشَرِبْتُ عِدَّةَ أَكْوابٍ مِنْ
لَبَنٍ دَسِمٍ حُلْوٍ .

وَعِنْدَما حَلَّ الظَّلامُ عادَ زَوْجُها ، وَكانَ رَجُلاً ضَخْماً لَهُ شارِبٌ
أَسْوَدُ كَثيفٌ . وَتَحَدَّثْنا لِمُدَّةِ ساعَةٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَدَخَّنّا بَعْضاً مِنْ تَبْغِ
غَلْيوني . وَلَمْ يَسْأَلاني أَيَّةَ أَسْئِلَةٍ ؛ إِذِ اعْتَقَدا أَنَّني مُزارِعٌ .

وَفي الصَّباحِ اسْتَمْتَعْتُ بِإِفْطارٍ شَهِيٍّ وافِرٍ . وَ عِنْدَما قَدَّمْتُ
لِلْمَرْأَةِ نِصْفَ جُنَيْهٍ ذَهَبِيًّا رَفَضَتْ أَنْ تَأْخُذَهُ . وَلَمّا كانَ الجَوُّ حارًّا ،
فَقَدْ أَعْطَتْني المَرْأَةُ إِناءً مَليئاً بِاللَّبَنِ لآخُذَهُ مَعي . وَكانَتِ السّاعَةُ

التَّاسِعَةَ عِنْدَما غادَرْتُ البَيْتَ . وَسِرْتُ عِدَّةَ كيلو مِتْراتٍ تِجاهَ الجَنوبِ ؛ لأنَّني كُنْتُ أَوَدُّ أنْ أعودَ إلى جِوارِ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ ، وَلَيْسَ إلى المَحَطَّةِ الصَّغيرَةِ نَفْسِها ؛ خَشْيَةَ أنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيَّ الطِّفْلُ أوْ رِجالُ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ إذا رَأَوْني ثانِيَةً .

وَهكَذا اتَّجَهْتُ إلى المَحَطَّةِ التَّالِيَةِ . وَأَثْناءَ سَيْري رَأَيْتُ أنَّ أكْثَرَ السُّبُلِ أمْنًا ، هُوَ أنْ أعودَ إلى مَدينَةِ دَمْفريز ؛ فَقَدْ تَكونُ الشُّرْطَةُ جادَّةً في البَحْثِ عَنّي ، وَسَأَكونُ أكْثَرَ أمانًا في مَدينَةٍ كَبيرَةٍ .

وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى المَحَطَّةِ ، اشْتَرَيْتُ تَذْكِرَةً إلى دَمْفريز . وَلَمْ يَطُلِ انْتِظاري كَثيرًا ، فَقَدْ وَصَلَ القِطارُ . وَجَلَسْتُ بِجِوارِ رَجُلٍ عَجوزٍ مَعَهُ كَلْبُهُ ، وَسَرْعانَ ما اسْتَغْرَقَ الرَّجُلُ في النَّوْمِ ، فَتَناوَلْتُ صَحيفَتَهُ المُلْقاةَ بِجانِبِهِ . وَكانَ نَبَأُ الجَريمَةِ مَنْشورًا في الصَّفْحَةِ الأولى بِحُروفٍ كَبيرَةٍ تَقولُ :

جريمة في شقة بمدينة لندن

وَجاءَ في الصَّحيفَةِ أنَّ بائِعَ اللَّبَنِ ظَلَّ يَنْتَظِرُ عَوْدَتي نِصْفَ ساعَةٍ ، اسْتَدْعى بَعْدَها رِجالَ الشُّرْطَةِ ، وَدَخَلوا شَقَّتي وَعَثَروا عَلى جُثَّةِ اسْكَدَر ، وَقُبِضَ عَلى بائِعِ اللَّبَنِ وَأُودِعَ السِّجْنَ . وَشَعَرْتُ بِالأَسَفِ الشَّديدِ لِذلِكَ الرَّجُلِ المِسْكينِ.



وَ واصَلَتِ الصَّحيفَةُ اسْتِكْمالَ قِصَّةِ الجَريمَةِ في الصَّفْحَةِ الأخيرَةِ . وَجاءَ في آخِرِها أنَّهُمْ أطْلَقوا سَراحَ بائِعِ اللَّبَنِ ، وَأنَّ الشُّرْطَةَ تَبْحَثُ عَنْ رَجُلٍ اسْمُهُ رِيتْشارْد هنّاي ، وَأنَّهُمْ يَعْتَقِدونَ أنَّهُ هَرَبَ إلى اسْكُتْلَنْدا بِالقِطارِ .

وَسَعِدْتُ لإِطْلاقِ سَراحِ بائِعِ اللَّبَنِ ، الَّذي لا يَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الجَريمَةِ ، وَلا عَلاقَةَ لَهُ بِها سِوى أنَّني أعْطَيْتُهُ جُنَيْهًا ذَهَبِيًّا . وَلِهذا السَّبَبِ قُبِضَ عَلَيْهِ وَأُودِعَ السِّجْنَ .

وَ وَقَفَ القِطارُ في مَحَطَّةٍ عَرَفْتُها ؛ فَقَدْ كانَتِ المَكانَ الَّذي

نَزَلْتُ فيهِ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ . وَ وَصَلَ قِطارٌ آخَرُ مِنْ دَمفريز ، وَنَزَلَ مِنْهُ ثَلاثَةُ رِجالٍ ، وَتَحَدَّثوا إلى رِجالِ المَحَطَّةِ وَالطِّفْلِ . وَراقَبْتُهُمْ بِحَذَرٍ ، وَكانَ الطِّفْلُ يُشيرُ إلى الطَّريقِ الَّذي سَلَكْتُهُ .

وَبَدَأَ القِطارُ يَتَحَرَّكُ ثانِيَةً ، وَأَثْناءَ تَحَرُّكِهِ خارِجاً مِنَ المَحَطَّةِ أَخْفَيْتُ وَجْهي بِالصَّحيفَةِ . وَبَعْدَ أَنْ سارَ القِطارُ مَسافَةَ كيلو مِتْرَيْنِ تَقْريباً تَوَقَّفَ فَجْأَةً وَلَمْ نَكُنْ في مَحَطَّةٍ ؛ إِذْ كانَ القِطارُ قَريباً مِنْ جِسْرٍ فَوْقَ نَهْرٍ .

وَكانَتْ هٰذِهِ فُرْصَتي ، فَغَيَّرْتُ خُطَّتي عَلَى الفَوْرِ ، وَفَتَحْتُ البابَ وَقَفَزْتُ خارِجاً . وَكانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَكونَ فِكْرَةً سَديدَةً ، لَوْ أَنَّني لَمْ أَنْسَ الكَلْبَ . فَعِنْدَما قَفَزْتُ ، حاوَلَ الكَلْبُ أَنْ يَتْبَعَني ؛ فَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ العَجوزُ وَانْدَفَعَ ناحِيَةَ البابِ صائِحاً : « النَّجْدَةَ ! النَّجْدَةَ ! »

وَجَرَيْتُ نَحْوَ شاطِئِ النَّهْرِ ، وَاخْتَبَأْتُ داخِلَ بَعْضِ الشُّجَيْراتِ هُناكَ . وَتَجَمَّعَ بَعْضُ الرُّكّابِ ، وَمَعَهُمْ مُحَصِّلُ التَّذاكِرِ عِنْدَ البابِ المَفْتوحِ . وَأَشارَ رَجُلٌ ناحِيَةَ شاطِئِ النَّهْرِ .

وَأَنْقَذَتْني المُصادَفَةُ الحَسَنَةُ ؛ فَأَنا لَمْ أُلاحِظْ أَنَّ الكَلْبَ مَرْبوطٌ في يَدِ صاحِبِهِ . وَقَفَزَ الكَلْبُ فَجْأَةً جاذِباً مَعَهُ الرَّجُلَ العَجوزَ خارِجَ

القِطارِ ، وَتَدَحْرَجَ الاثْنانِ عَلى شاطِئِ النَّهْرِ ، وَلِلَحْظَةٍ نَسِيَني النّاسُ ، وَانْشَغَلوا بِإِنْقاذِ الرَّجُلِ العَجوزِ . وَعَضَّ الكَلْبُ أَحَدَهُمْ أَثْناءَ هٰذا الهِياجِ ، فَانْتَهَزْتُ الفُرْصَةَ ، وَلُذْتُ بِالفِرارِ وَسْطَ الشُّجَيْراتِ .

وَعِنْدَما نَظَرْتُ خَلْفي ، كانَ الهِياجُ قَدِ انْتَهى ، وَبَدَأَ النّاسُ يَصْعَدونَ إلى القِطارِ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَسَرْعانَ ما بَدَأَ يَتَحَرَّكُ .

وَسِرْتُ بِمُحاذاةِ شاطِئِ النَّهْرِ أُفَكِّرُ في مُشْكِلَتي . لَقَدْ كُنْتُ بِمَأْمَنٍ ، وَلٰكِنَّني في الوَقْتِ نَفْسِهِ كُنْتُ خائِفاً ، لا أَعْني أَنَّني كُنْتُ خائِفاً مِنَ الشُّرْطَةِ ، بَلْ كُنْتُ أُفَكِّرُ في أَعْداءِ اسْكَدر وَمُخَطَّطاتِهِمُ الَّتي عَرَفْتُها . وَأَصْبَحْتُ عَلى يَقينٍ أَنَّهُمْ لا بُدَّ أَنْ يُحاوِلوا قَتْلي أَوِ الزَّجَّ بي في السِّجْنِ . إِنَّهُمْ يُشَكِّلونَ خَطَراً بِالنِّسْبَةِ لي ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ إِخْفاءَ خَوْفي ؛ فَمَتاعِبي لَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ .

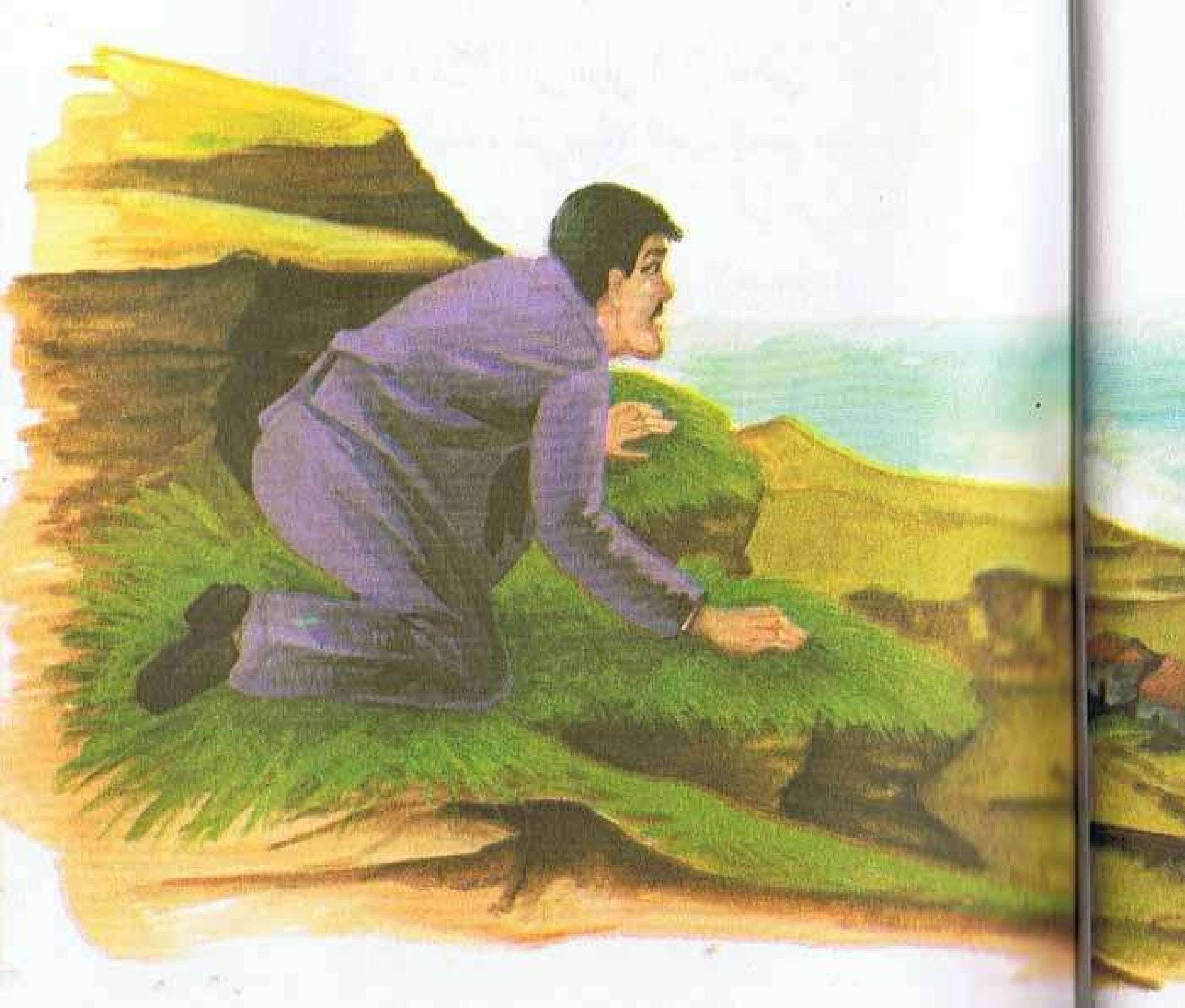
وَاتَّجَهْتُ بَعيداً عَنِ النَّهْرِ حَتّى وَصَلْتُ إلى قِمَّةِ التَّلِّ . وَكانَتْ هُناكَ تِلالٌ أُخْرى تُحيطُ بي ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى بِوُضوحٍ عَلى مَدى عِدَّةِ كيلو مِتْراتٍ . وَكانَتْ هُناكَ كَذٰلِكَ مَحَطَّةُ سِكَّةٍ حَديدِيَّةٍ وَمَنْزِلانِ صَغيرانِ . وَكانَ ثَمَّةَ غُبارٌ يَتَصاعَدُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَهٰذا يَعْني أَنَّهُ يوجَدُ طَريقٌ . ثُمَّ تَطَلَّعْتُ إلى السَّماءِ الزَّرْقاءِ ، وَكادَ قَلْبي يَتَوَقَّفُ هَلَعاً ؛ كانَتْ ثَمَّةَ طائِرَةٌ صَغيرَةٌ تَتَّجِهُ نَحْوي . وَأَدْرَكْتُ عَلى

الفَوْرِ أنَّ أعْداءَ اسْكَدر هُمُ الَّذينَ في الطَّائِرَةِ ؛ فَرِجالُ الشُّرْطَةِ هُنا لا يَسْتَخْدِمونَ الطّائِراتِ أبَداً لِلْبَحْثِ عَنِ النّاس .

وَاخْتَبَأْتُ خَلْفَ صَخْرَةٍ وَأَخَذْتُ أُراقِبُ الطّائِرَةَ ، وَكانَتْ تَطيرُ بِمُحاذاةِ شاطِئِ النَّهْرِ في دَوائِرَ ضَيِّقَةٍ ، وَعَلى ارْتِفاعٍ مُنْخَفِضٍ جِدًّا لِدَرَجَةِ أَنَّني اسْتَطَعْتُ رُؤْيَةَ قائِدِ الطّائِرَةِ . لكِنَّني كُنْتُ موقِنًا مِن أنَّهُ لَمْ يَرَني . وَارْتَفَعَتِ الطّائِرَةُ بَعْدَ ذلِكَ إلى أعْلى وَاسْتَدارَتْ ، وَطارَتْ فَوْقَ النَّهْرِ مَرَّةً أُخْرى ، وَعادَتْ صَوْبَ الجَنوبِ .

وَقَرَّرْتُ عَلى الفَوْرِ أنْ أُغادِرَ هذِهِ التِّلالَ ، وَإلّا عَثَرَ عَلَيَّ أعْدائي لَوْ تَطَلَّعوا إلَيَّ مِنَ السَّماءِ ، فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَكانٌ أَخْتَبِئُ فيهِ .

وَبَلَغْتُ الطَّريقَ في السّاعَةِ السّادِسَةِ ، وَسِرْتُ فيهِ عِدَّةَ كيلو مِتْراتٍ . ثُمَّ بَدَأَ الظَّلامُ يُخَيِّمُ عَلى المَكانِ ، وَ كُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إلى مَنْزِلٍ بِجِوارِ جِسْرٍ . وَأَدْهَشَني أنْ أرى مَنْزِلاً يَقِفُ مُنْعَزِلاً في مِثْلِ ذلِكَ المَكانِ المُقْفِرِ . وَكانَ عَلى الجِسْرِ شابٌّ يَقْرَأُ .



قالَ لي : « مَساءُ الخَيْرِ . إنَّ الجَوَّ لَطيفٌ هذِهِ اللَّيْلَةَ ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟ »

أجَبْتُهُ : « بَلي . هَلْ هذا المَنْزِلُ فُنْدُقٌ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ ، يا سَيِّدي ، وَأنا صاحِبُ الفُنْدُقِ . أ تَوَدُّ أنْ تَقْضِيَ اللَّيْلَةَ هُنا ؟ »

قُلْتُ : « لكِنَّكَ صاحِبُ فُنْدُقٍ صَغيرُ السِّنِّ ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟ »

قالَ : « بَلى ؛ ذلِكَ أنَّ أبي تُوُفِّيَ العامَ الماضِيَ ، وَتَرَكَ لي هذا الفُنْدُقَ . وَأنا أعيشُ هُنا مَعَ أمّي ، وَلا أحِبُّ العَمَلَ على الإطْلاقِ . إنّنى أفَضِّلُ كِتابَةَ القِصَصِ ، لكِنْ عَنْ أيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُني أنْ أكْتُبَ ؟ إنَّني لا أقابِلُ ناساً كَثيرينَ يُثيرونَ الاهْتِمامَ . »

وَفَجْأةً راوَدَتْني فِكْرَةٌ بِأنْ أسْتَعينَ بِذلِكَ الشّابِّ .

قُلْتُ لَهُ : « سَأحْكي لَكَ قِصَّةً ، وَهِيَ حَقيقِيَّةٌ . فَأنا في حاجَةٍ إلى صَديقٍ أحْكي لَهُ هذِهِ القِصَّةَ لِكَيْ أحْظى بِمُعاوَنَتِهِ . وَسَوْفَ أسْمَحُ لَكَ بِكِتابَتِها شَريطَةَ أنْ لا تَفْعَلَ شَيْئاً قَبْلَ يَوْم ١٥ يُونْيُه (حَزيران) ؛ فَهُوَ تاريخٌ مُهِمٌّ جِدًّا . »

وَجَلَسْتُ فَوْقَ الجِسْرِ وَحَكَيْتُ لَهُ القِصَّةَ ، وَكانَ يُصْغي بِانْتِباهٍ

وَعَيْناهُ تَلْمَعانِ بِالإثارَةِ .

قُلْتُ لَهُ : « إنَّني فَلاحٌ مِنْ روديسْيا ، وَجِئْتُ إلى بريطانْيا مُنْذُ عِدَّةِ أسابيعَ ، وَقَدْ سافَرْتُ بِسَفينَةٍ مِنْ ساحِلِ غَرْبِ أفْريقْيا ، وَظَنَّ الألْمانُ هُناكَ أنَّني جاسوسٌ ؛ فَأخَذوا يَتَعَقَّبونَني طَوالَ السَّفَرِ حَتّى وَصَلْتُ إلى بريطانْيا ، وَقَدْ قَتَلوا أعَزَّ أصْدِقائي ، وَالآنَ يُحاوِلونَ قَتْلي. هَلْ قَرَأتَ الصَّحيفَةَ اليَوْمَ ؟ »

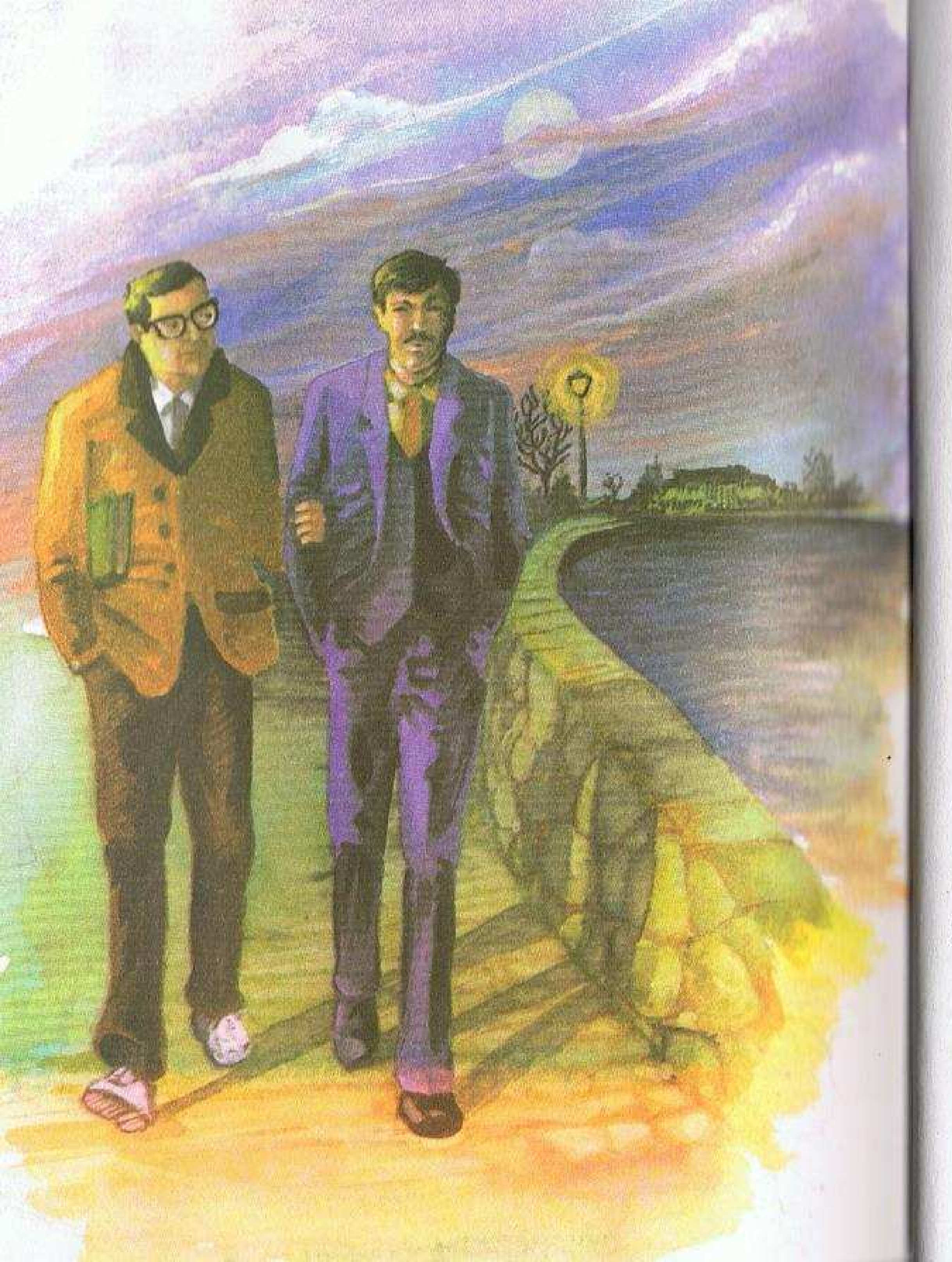
وَأوْمَأ بِرَأسِهِ بِالإيجابِ .

قُلْتُ : « حَسَنٌ ! إذاً فَأنْتَ عَلى عِلْمٍ بِجَريمَةِ قَتْلِ فرانكلين اسْكَدر . »

هَزَّ الشّابُّ رَأسَهُ ثانِيَةً ، وَاتَّسَعَتْ عَيْناهُ .

قُلْتُ : « كانَ أعَزَّ صَديقٍ لي ، وَقَدْ قُتِلَ في شَقَّتي . »

حَكَيْتُ لَهُ أنَّ اسْكَدر كانَ يَتَعاوَنُ مَعَ وَزارَةِ الخارِجِيَّةِ ، وَأوْضَحْتُ أنَّهُ قَدْ عَرَفَ بَعْضَ أسْرارِ الألْمانِ . وَكانَتْ قِصَّتي طَويلَةً وَمَحْبوكَةً وَمُثيرَةً لِلْغايَةِ . وَفي النِّهايَةِ قُلْتُ لَهُ : « أ لَسْتَ تَبْحَثُ عَنْ مُغامَرَةٍ ؟ ها أنْتَ ذا قَدْ وَجَدْتَها ! فَهؤُلاءِ الجَواسيسُ الألْمانُ قَدْ يَحْضُرونَ إلى هُنا ، وَأنا أريدُ أنْ أخْتَبِئَ مِنْهُمْ . »



تناوَلَ ذِراعي بِرِفْقٍ وَقادَني ناحِيَةَ الفُنْدُقِ .

قالَ لي : « سَتَكونُ آمِناً هُنا ، يا سَيِّدي ؛ وَلا بُدَّ أَنْ تَحكِيَ لي مُغامَراتِكَ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَسَوْفَ أَكْتُبُها . »

قُلْتُ : « لا مانِعَ ! لكِنْ لَدَيَّ بَعْضُ الأَعْمالِ عَلَيَّ أَنْ أُنْجِزَها أَوَّلاً ؛ فَقَدْ تَرَكَ لي اسكدر رِسالَةً طَويلَةً بِالشَّفْرَةِ ، وَيَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أَحُلَّ رُموزَها . »

وَبَيْنَما كُنّا نَدْخُلُ الفُنْدُقَ ، سَمِعْتُ صَوْتَ الطّائِرَةِ مَرَّةً ثانِيَةً . وَكانَتْ تُحَلِّقُ عَلى ارْتِفاعٍ مُنْخَفِضٍ ناحِيَةَ الجِسْرِ .

اِسْتَأْجَرْتُ حُجْرَةً هادِئَةً في الجُزْءِ الخَلْفِيِّ مِنَ الفُنْدُقِ ، وَكانَتْ والِدَةُ صاحِبِ الفُنْدُقِ تُحْضِرُ لِيَ الطَّعامَ في كُلِّ وَجْبَةٍ . وَقَدْ راقَني المَكانُ تَماماً .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي أَخْرَجْتُ مُفَكِّرَةَ اسكدر ، وَبَدَأْتُ العَمَلَ . وَكانَتِ الشَّفْرَةُ صَعْبَةً ، وَقَدْ حاوَلْتُ ما أَمْكَنَني اسْتِخْدامَ عِدَّةِ مَفاتيحَ لِحَلِّ رُموزِ الشَّفْرَةِ . وَعِنْدَ الظُّهْرِ كُنْتُ قَدِ اكْتَشَفْتُ المَسافاتِ المَوْجودَةَ بَيْنَ الكَلِماتِ ، لكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكْتَشِفَ الحُروفَ .

وَبَعْدَ الغَداءِ حاوَلْتُ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَظَلِلْتُ أَعْمَلُ بِاجْتِهادٍ حَتّى

السّاعةِ الثّالثةِ . وَفَجْأةً خطَرَتْ لي فِكْرَةٌ ، وَكُنْتُ مُسْتَلقِياً عَلى مَقْعَدي ، عِنْدَما مَرَّ بِخاطِري اسْمُ امْرَأَةٍ ، وَهُوَ «جوليا تشيكَنّي» ، الّتي قالَ عَنْها اسْكَدر إنَّها مِنْ أَلَدِّ أَعْدائِهِ . وَمِنَ المُحْتَمَل أنْ يَكونَ اسْمُها هُوَ مِفْتاحَ حَلِّ رُموزِ الشِّفْرَةِ . وَجَرَّبْتُ ذلِكَ بِسُرْعَةٍ عَلى الشِّفْرَةِ فَكانَ مُطابِقًا . إنَّ اسْمَ جوليا Julia يَتَأَلَّفُ مِنْ خَمْسَةِ أَحْرُفٍ ، وَقَدِ اسْتَخْدَمَ اسْكَدر هذِهِ الأَحْرُفَ بَدَلاً مِنْ خَمْسَةِ أَحْرُفٍ في حُروفِ الهِجاءِ الإنْجليزيَّةِ ، هِيَ : u, o, i, e, a . فَحَرْفُ j مَثَلاً هُوَ الحَرْفُ العاشِرُ في حُروفِ الهِجاءِ الإنْجليزيَّةِ ؛ لِذا كانَ يَسْتَخْدِمُ رَقْمَ ١٠ بَدَلاً مِنْ حَرْفِ a . وَحَرْفُ e هُوَ حَرْفُ u في اسْمِ جوليا Julia ، وَحَرْفُ u تَرْتيبُهُ الحادي وَالعِشْرونَ ؛ لِذا كانَ اسْكَدر يَكْتُبُ ٢١ بَدَلاً مِنْ حَرْفِ e .

وَمِنْ خِلالِ اسْمِ تشيكَنّي أَمْكَنَني أنْ أَعْرِفَ تِسْعَةَ أَرْقامٍ أُخْرى . وَهكَذا اسْتَطَعْتُ قِراءَةَ مُفَكِّرَةِ اسْكَدر . وَجَلَسْتُ في حُجْرَتي أَعْمَلُ بِهُدوءٍ طيلَةَ فَتْرَةِ ما بَعْدَ الظُّهْرِ .

كانَتِ الحَقائِقُ الّتي ذَكَرَها اسْكَدر في مُفَكِّرَتِه مُرْعِبَةً ، حَتّى إنَّهُ عِنْدَما أَحْضَرَتْ لي السَّيِّدَةُ الشّايَ ، كُنْتُ في حالَةٍ عَصَبِيَّةٍ سَيِّئَةٍ جِدًّا . وَبَدا وَجْهي شاحِباً ، وَفَقَدْتُ الرَّغْبَةَ في أنْ آكُلَ شَيْئاً .

سَأَلَتْني : « أ بِخَيْرٍ أَنْتَ يا سَيِّدي ؟ إنَّهُ يَبْدو عَلَيْكَ الشُّحوبُ الشَّديدُ .»

قُلْتُ : « لا شَيْءَ ! أَرْجوكِ أنْ تَضَعي هذِهِ الأَشْياءَ عَلى المِنْضَدَةِ .»

وَحَدَثَتْ ضَجَّةٌ مُفاجِئَةٌ خارِجَ الفُنْدُقِ ؛ فَغادَرَتِ السَّيِّدَةُ الحُجْرَةَ . وَسَمِعْتُ صَوْتَ مُحَرِّكِ سَيّارَةٍ يَتَوَقَّفُ ، وَبَعْدَ ذلِكَ سَمِعْتُ عِدَّةَ أَصْواتٍ مُخْتَلِفَةٍ . وَبَعْدَ قَليل انْدَفَعَ صاحِبُ الفُنْدُقِ إلى حُجْرَتي قائِلاً :

« لَقَدْ وَصَلَ رَجُلانِ تَوًّا ، وَهُما يَبْحَثانِ عَنْكَ ، وَقَدْ وَصَفاكَ بِدِقَّةٍ شَديدَةٍ .»

« ماذا قُلْتَ لَهُما ؟»

« قُلْتُ لَهُما إنَّكَ قَضَيْتَ أَمْس هُنا ، وَغادَرْتَ الفُنْدُقَ صَباحَ اليَوْمِ مُبَكِّرًا .»

« أ تَسْتَطيعُ أنْ تَصِفَهُما لي ؟»

« أَحَدُهُما نَحيفٌ أَسْمَرُ ، وَالآخَرُ يَميلُ إلى البَدانَةِ .»

« هَلْ يَتَحَدَّثانِ كَالإنْجليزِ ؟ »

هَزَّ رَأسَهُ قائِلاً : « نَعَمْ ، أَعْتَقِدُ ذلِكَ . »

اِلْتَقَطْتُ قُصاصَةَ وَرَقٍ ، وَكَتَبْتُ بِسُرْعَةٍ بالألمانِيَّةِ : «... بلاك ستُون . لَقَدْ سَمِعَ اسْكَدر عَنْ ذلِكَ ، لكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا حَتّى الخامِسَ عَشَرَ مِنْ يُونْيَه (حزيران) . إنَّ خُطَطَ كارُولِيدِس غَيْرُ مُؤَكَّدَةٍ ، وَقَدْ لا يَكونُ في اسْتِطاعَتي أَنْ أَقومَ بِالْمُساعَدَةِ . لكِنْ إذا أَشارَ السَّيِّدُ (ت) بِذلِكَ ؛ فَسَأُحاوِلُ ... »

وَعِنْدَما فَرَغْتُ مِنْ كِتابَةِ هذِهِ الرِّسالَةِ مَزَّقْتُ أَطْرافَها، حَتّى تَبْدُوَ كَأَنَّها جُزْءٌ مِنْ خِطابٍ مُمَزَّقٍ ، وَقُلْتُ لَهُ : « سَلِّمْ هذِهِ لَهُما ، وَقُلْ إِنَّكَ وَجَدْتَها في غُرْفَتي . »

وَبَعْدَ مُضِيِّ ثَلاثِ دَقائِقَ انْصَرَفَ الرَّجُلانِ بِسَيّارَتِهِما . وَعادَ صاحِبُ الفُنْدُقِ في غايَةِ الابْتِهاجِ ، وَقالَ : « لَقَدْ أَصابَتْهُما وَرَقَتُكَ بِالدَّهْشَةِ ؛ إذْ شَحَبَ وَجْهُ الرَّجُلِ ذي الشَّعْرِ الأَسْوَدِ ، وَبَدا الرَّجُلُ البَدينُ قَبيحَ الشَّكْلِ جِدًّا . وَدَفَعا ثَمَنَ ما شَرِباهُ ، وَانْصَرَفا عَلى الفَوْرِ . »

قُلْتُ : « أُريدُكَ الآنَ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ أَجْلي . اِرْكَبْ دَرّاجَتَكَ

وَاذْهَبْ إلى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ في نيُوتُون - ستيوارْت ، وَصِفْ لَهُمُ الرَّجُلَيْنِ وَحَدِّثْهُمْ عَنْ جَريمَةِ لَنْدَن . وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَخْتَلِقَ أَسْباباً ، كَأَنْ تَقولَ مَثَلاً إنَّكَ سَمِعْتَ حَديثًا بَيْنَهُما قالَ فيهِ أَحَدُهُما لِلآخَرِ إنَّهُ قَدْ أُفْرِجَ عَنْهُ اليَوْمَ فَقَطْ مِنَ السِّجْنِ . وَتَقولُ كَذلِكَ إنَّكَ سَمِعْتَ اسْمَ اسْكَدر، وإنَّ الفَريسَةَ لَمْ تَقَعْ بَعْدُ ، وَسَوْفَ يَعودُ هذانِ الرَّجُلانِ صَباحَ غَدٍ ، وَيَنْبَغي أَنْ يَكونَ رِجالُ الشُّرْطَةِ هُنا لِيَقْبِضوا عَلَيْهِما . »

وَانْصَرَفَ صاحِبُ الفُنْدُقِ في الحالِ ، وَ واصَلْتُ أنا عَمَلي في مُفَكِّرَةِ اسْكَدر . وَعِنْدَما عادَ كانَتِ السّاعَةُ السّادِسَةَ .

قالَ : « كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . وَسَوْفَ يَأْتي رِجالُ الشُّرْطَةِ إلى هُنا في الثّامِنَةِ صَباحاً . »

تَناوَلْنا الطَّعامَ مَعاً ، وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهِ مُغامَراتي مَرَّةً ثانِيَةً. وَكانَ يُدَوِّنُ بَعْضَ المُلاحَظاتِ أَثْناءَ الأَكْلِ . وَلَمْ أَسْتَطِعِ النَّوْمَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَفَرَغْتُ مِنْ فَكِّ رُموزِ مُفَكِّرَةِ اسْكَدر ، وَجَلَسْتُ في مَقْعَدي ساهِراً حَتّى الصَّباحِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ أُفَكِّرُ في حِكايَةِ اسْكَدر المُرْعِبَةِ .

وَفي الثّامِنَةِ صَباحاً وَصَلَ ثَلاثَةٌ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ إلى الفُنْدُقِ ، فَقابَلَهُمْ صاحِبُ الفُنْدُقِ وَدَلَّهُمْ عَلى الجَراجِ ، فَتَرَكوا سَيّارَتَهُمْ فيهِ وَدَخَلوا الفُنْدُقَ .

وَبَعْدَ مُضِيِّ عِشْرينَ دَقيقَةً وَصَلَتْ سَيّارَةٌ أخرى ، وَتَوَقَّفَتْ عَلى بُعْدِ مِئَتَيْ مِتْرٍ تَقْريباً مِنَ الفُنْدُقِ . وَكُنْتُ أراقِبُ ذلِكَ مِنَ النّافِذَةِ الَّتي تَعْلو البابَ الأمامِيَّ . كانَتِ العَرَبَةُ تَقِفُ تَحْتَ ظِلالِ بَعْضِ الأشْجارِ ، وَنَزَلَ مِنْها رَجُلانِ ، وَسارا إلى الفُنْدُقِ .

وَكانَتِ الخُطَّةُ الَّتي وَضَعْتُها غَيْرَ مُحْكَمَةٍ تَماماً ، لكِنَّني كُنْتُ آمُلُ أنْ تَقْبِضَ الشُّرْطَةُ عَلى الرَّجُلَيْنِ ، وَلَوْ فَعَلَتْ ذلِكَ ، لَكُنْتُ في أمانٍ تامٍّ .

وَلكِنْ خَطَرَتْ لي في ذلِكَ الوَقْتِ فِكْرَةٌ أفْضَلُ ، فَكَتَبْتُ رِسالَةً إلى صاحِبِ الفُنْدُقِ ، وَتَرَكْتُها في حُجْرَتي ، ثُمَّ فَتَحْتُ نافِذَةَ الحُجْرَةِ وَنَزَلْتُ بِهُدوءٍ ، وَاخْتَبَأْتُ بَيْنَ بَعْضِ شُجَيْراتِ الحَديقَةِ . وَجَرَيْتُ بَعْدَ ذلِكَ عَبْرَ الحَديقَةِ حَتّى وَصَلْتُ إلى حُدودِ أحَدِ الحُقولِ المُجاوِرَةِ . وَما هِيَ إلّا دَقائِقُ قَليلَةٌ حَتّي وَصَلْتُ إلى الأشْجارِ ، وَلَمْ أضَيِّعْ دَقيقَةً واحِدَةً ؛ فَرَكِبْتُ السَّيّارَةَ الواقِفَةَ هُناكَ ، وَأدَرْتُ المُحَرِّكَ ، وَانْطَلَقْتُ بِها .

وَحَمَلَتِ الرّيحُ إلى أذُنَيَّ الأصْواتَ الغاضِبَةَ ، عَلى حينَ كُنْتُ أقودُ السَّيّارَةَ عَلى الطَّريقِ ، بِسُرْعَةِ ثَمانينَ كيلومِتْراً في السّاعَةِ .

الفَصْلُ الرّابِعُ

المُغامَرَةُ مَعَ سِير هاري

كانَ صَباحاً جَميلاً ، وَلكِنّني لَمْ أكُنْ أفكّرُ في الجوّ الجَميل أوْ في تِلْكَ المَناظِرِ المُحيطَةِ بي ، بَلْ كانَتْ أفْكاري كُلُّها تَتَركّزُ في اسْكَدر وَمُفكّرَتِهِ .

لَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ ذلِكَ الرَّجُلُ الضّئيلُ الجِسْم ، اسْكَدر ؛ فَقَدْ تَحَدّثَ كَثيراً عَنْ كارُوليدس ، وَكانَ جُزْءٌ مِنْ حَديثِهِ صَحيحاً ، لكِنّهُ لَمْ يَذْكُرْ لي الأشْياءَ المُهِمّةَ . وَأنا ألومُ اسْكَدر لأنّهُ لَمْ يُكاشِفْني بِالأسْرارِ الحَقيقيّةِ ؛ فَرُبّما كانَ خائِفاً مِنَ البَوْحِ بِها لأيِّ إنْسانٍ . وَبالطّبْعِ كانَ كارُوليدِس في خَطَرٍ ، غَيْرَ أنّ الخَطَرَ كانَ أعْظَمَ بِالنِّسْبَةِ لأوربّا كُلِّها ؛ وَهذا هُوَ السِّرُّ الحَقيقيُّ الّذي احْتَفَظَ بِهِ اسْكَدر في مُفَكّرَتِهِ الصّغيرَةِ .

وَلاحَظْتُ تَكْرارَ هَذِهِ العِبارَةِ : « تِسْعٌ وَثَلاثونَ دَرَجَةً » عِدّةَ مَرّاتٍ في مُفكّرَتِه . وَفي إحْدى المَرّاتِ كَتَبَها عَلى النّحْوِ التّالي : « تِسْعٌ وَثَلاثونَ دَرَجَةً ، وَلَقَدْ عَدَدْتُها جَيِّداً . وَ المَدُّ يَكونُ عالِياً هُناكَ في العاشِرَةِ وَسَبْعَ عَشْرَةَ دَقيقَةً . »

وَتَساءَلْتُ عَنْ مَعْنى هَذِهِ الكَلِماتِ ؛ فَلا بُدَّ أنْ تَكونَ « التّسْعُ وَالثّلاثونَ دَرَجَةً » هذِهِ في مَكانٍ ما عَلى السّاحِلِ ، وَكَلِمَةُ المَدّ تُؤَكّدُ ذلِكَ . وَلكِنْ ما وَجْهُ أهَمِّيّتِها ؟

لَقَدْ كَتَبَ اسْكَدر أنّ الحَرْبَ مُؤَكَّدَةٌ ، وَلا أحَدَ يَسْتَطيعُ أنْ يوقِفَها . وَكانَتْ خُطَطُ الألْمانِ جاهِزَةً مُنْذُ فبراير عام ١٩١٢ ، وَكانَ مِنَ المُقَرَّرِ أنْ يَقْتُلوا كارُولِيدِس يَوْمَ ١٤ يونْيه ، وَتَكونَ وَفاتُهُ هِيَ المُبَرِّرَ لِنُشوبِ الحَرْبِ . لَقَدْ كَتَبَ في مُفكّرَتِه : « إنَّ الألْمانَ سَوْفَ يَتَحَدَّثونَ عَنِ السّلامِ في أوربّا ، عَلى حينِ أنّهُمْ لا يَرْغَبونَ في السّلامِ . بَلْ هُمْ مُسْتَعِدّونَ لِلْحَرْبِ وَسَوْفَ يُهاجِمونَنا فَجْأةً . »

وَكَتَبَ اسْكَدر أيْضاً عَنْ زِيارَةِ ضابِطٍ فَرَنْسيٍّ لِلَنْدَن ، وَهُوَ قائِدُ الجَيْشِ الفَرَنْسيِّ الّذي كانَ سَيَحْضُرُ يَوْمَ ١٥ يونْيه ، فَقالَ : « هذا الضّابِطُ سَيُحاطُ عِلْماً بِالخُطَطِ البَريطانيّةِ ، وَسَوْفَ يَعودُ ثانِيَةً إلى فَرَنْسا . »

وَأضافَ اسْكَدر أنَّ أفْرادَ عِصابَةِ بلاك ستُّون سَيكونونَ مَوجودينَ أيْضاً في لَنْدَن في ذلِكَ اليَوْم ، وَسَيَعْرِفونَ الخُطَطَ كَذلِكَ ، وَسَيُرْسِلونَها عَلى الفَوْرِ إلى ألْمانيا .

وَ واصَلْتُ سَيْري بِالسَّيّارَةِ خِلالَ قُرى غالواي الرّائِعَةِ ، الّتي تُعَدُّ مِنْ أجْمَلِ مَناطِقِ اسْكُتْلَنْدا ، وَلكِنَّني لَمْ أسْتَطِعْ الاِسْتِمْتاعَ بِذلِكَ الهُدوءِ المُحيطِ بي .

كانَ لِزاماً عَلَيَّ أنْ أهْرُبَ مِنْ أعْدائي وَأظَلَّ عَلى قَيْدِ الحَياةِ . وَلكِنَّ الأمورَ أخَذَتْ تَتَعَقَّدُ ؛ فَرِجالُ الشُّرْطَةِ ، وَرِجالُ عِصابَةِ بلاك ستون يَتَعَقَّبونَني ، وَأنا لَيْسَ لي أصْدِقاءُ في اسْكُتْلَنْدا .

وَعِنْدَ الظُّهْرِ تَقْريباً وَصَلْتُ إلى قَرْيَةٍ كَبيرَةٍ ، وَكُنْتُ جائِعاً فَقَرَّرْتُ أنْ أتَوَقَّفَ . وَلَمَحْتُ شُرْطِيّاً يَقِفُ خارِجَ مَبْنى البَريدِ يَقْرَأُ بَرْقِيَّةً . وَعِنْدَما رَأى السَّيّارَةَ رَفَعَ يَدَهُ وَانْدَفَعَ إلى وَسَطِ الطَّريقِ ، صائِحاً : «قِفْ ! قِفْ !»

وَفَجْأةً انْتابَني الشَّكُّ وَأدْرَكْتُ أنَّ تِلْكَ البَرْقِيَّةَ تَتَعَلَّقُ بي . وَلا بُدَّ أنَّ شَيْئاً ما حَدَثَ بِالفُنْدُقِ ، وَرُبَّما يَكونُ رِجالُ الشُّرْطَةِ قَدِ اتَّفَقوا مَعَ الجَواسيسِ ، وَأدْلَوْا بِأوْصافِ السَّيّارَةِ ؛ وَبِالتّالي بَعَثَ رِجالُ الشُّرْطَةِ

بِهذِهِ البَرْقِيَّةِ إلى كُلِّ القُرى المُجاوِرَةِ .

وَلَمْ أتَوَقَّفْ ، وَمَدَّ رَجُلُ الشُّرْطَةِ يَدَهُ ، وَشَرَعَ يَجْري بِجِوارِ السَّيّارَةِ ، وَأمْسَكَ بِذِراعي مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ الّتي كانَتْ مَفْتوحَةً ، وَلكِنَّني لَكَمْتُهُ بِشِدَّةٍ فَوَقَعَ عَلى ظَهْرِهِ .

وَعُدْتُ بِالسَّيّارَةِ إلى المَزارِعِ مَرَّةً ثانِيَةً مِنْ خِلالِ طَريقٍ ضَيِّقٍ . وَصَعِدْتُ تِلالاً عَديدَةً كانَتْ تُطِلُّ عَلى وادٍ فَسيحٍ . وَكُنْتُ مُتْعَباً وَجائِعاً ؛ فَبَدَأتُ أبْحَثُ عَنْ فُنْدُقٍ هادِئٍ أسْتَريحُ فيهِ . وَفَجْأةً سَمِعْتُ ضَجَّةً فَوْقي ؛ فَتَطَلَّعْتُ إلى أعْلى فَرَأيْتُ الطّائِرَةَ – عَلى بُعْدِ أمْيالٍ – مُتَّجِهَةً ناحِيَتي .

وَقُدْتُ السَّيّارَةَ بِسُرْعَةٍ هابِطاً تَلّاً تَحُفُّهُ الأشْجارُ وَالحَشائِشُ العالِيَةُ . وَفَجْأةً ظَهَرَتْ سَيّارَةٌ أخْرى مِنْ طَريقٍ جانِبِيٍّ ضَيِّقٍ ، فَلَمْ أسْتَطِعِ التَّوَقُّفَ ، وَجَذَبْتُ عَجَلَةَ القِيادَةِ بِشِدَّةٍ ناحِيَةَ اليَمينِ وَأغْلَقْتُ عَيْنَيَّ .

وَانْدَفَعَتْ سَيّارَتي بَيْنَ الأعْشابِ وَبَدَأتْ في السُّقوطِ . وَرَأيْتُ قاعَ الوادي عَلى بُعْدِ خَمْسَةَ عَشَرَ مِتْراً إلى أسْفَلُ ، فَقَفَزْتُ مِنَ السَّيّارَةِ وَتَدَحْرَجْتُ بَيْنَ الأعْشابِ . وَأحْدَثَتِ السَّيّارَةُ ضَجَّةً فَظيعَةً عِنْدَما انْقَلَبَتْ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ مِثْلَ كَوْمَةٍ مِنَ الحَديدِ في بَطْنِ



الوادي .

وَأخَذَ شَخْصٌ ما بِيَدي ، وَأخْرَجَني مِنْ بَيْنِ الأعْشابِ . وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَطوفًا يَسْألُني : « هَلْ أصِبْتَ بِأذًى ؟ »

وَإذا بِرَجُلٍ طَويلٍ يَقِفُ بِجِواري .

قالَ : « أنا آسِفٌ لِما حَدَثَ . لَقَدْ رَأيْتُ سَيّارَتَكَ ، لكِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أيٌّ مِنّا أنْ يُوقِفَ سَيّارَتَهُ في الوَقْتِ المُناسِبِ . آمُلُ أنْ تَكونَ بِخَيْرٍ . لكِنَّكَ تَبْدو شاحِبًا تَمامًا . »



وَكُنْتُ إلى حَدٍّ ما سَعيدًا لِوُقوعِ هَذِهِ الحادِثَةِ ؛ لأنَّ رِجالَ الشُّرْطَةِ كانوا يَبْحَثونَ عَنْ تِلْكَ السَّيّارَةِ ، التي لَمْ تَعُدْ تَصْلُحُ الآنَ لِلسَّفَرِ .

قُلْتُ : « إنَّها غَلْطَتي يا سَيِّدي ؛ فَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغي أنْ أقودَ بِسُرْعَةٍ في هذِهِ الطُّرُقِ الضَّيِّقَةِ . إنَّ هَذِهِ السَّيّارَةَ لَمْ تَعُدْ تَصْلُحُ لِلْقِيادَةِ بَعْدَ ذلِكَ . وَهَذِهِ هِيَ نِهايَةُ إجازَتي في اسْكُتْلَنْدا ، وَيَنْبَغي أنْ أكونَ سَعيدًا ؛ لأنَّها لَمْ تَكُنْ نِهايَةَ حَياتي ! »

قالَ ثانِيَةً : « أنا جِدُّ آسِفٍ ، في الحَقيقَةِ . »

وَنَظَرَ إلى ساعَتِهِ و واصَلَ كَلامَهُ قائِلاً : « لَدَيْنا وَقْتٌ كافٍ لِكَيْ نَذْهَبَ إلى مَنْزِلي ، حَيْثُ يُمْكِنُكَ أَنْ تُبَدِّلَ ثِيابَكَ وَتَتَناوَلَ شَيْئاً مِنَ الطَّعامِ . أَيْنَ حَقيبَتُكَ ؟ هَلْ هِيَ في السَّيّارَةِ ؟»

قُلْتُ : « لا ! فَكُلُّ أَشْيائي مَوْجودَةٌ في فُنْدُقٍ يَبْعُدُ عَنْ هُنا أَكْثَرَ مِنْ سِتّينَ كيلومِتْراً .»

وَأَخَذَتْني الحَيْرَةُ فيما أَقولُهُ لِذَلِكَ الرَّجُلِ عَنْ نَفْسي . فَلَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ في أَنْ أَقولَ لَهُ إِنَّني مِنْ رُوديسْيا ؛ لأَنَّ اسْمي ذُكِرَ في الصُّحُفِ ، وَالشُّرْطَةَ تَعْرِفُ أَنَّني قادِمٌ مِنْ رُوديسيا ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَسْتَنْتِجَ هذا الرَّجُلُ الحَقيقَةَ إذا قُلْتُ لَهُ أَيَّ شَيْءٍ عَنْ رُوديسْيا ؛ لِذا قَرَّرْتُ أَنْ أَدَّعِيَ أَنَّني مِنْ أُسْتراليا . وَكُنْتُ قَدْ قَرَأْتُ كَثيراً عَنْها ؛ وَبِالتّالي فَإِنَّني أَسْتَطيعُ التَّحَدُّثَ عَنْ ذَلِكَ البَلَدِ ؛ لَوْ أَنَّهُ سَأَلَني أَيَّ سُؤالٍ . وَهَكَذا لَنْ يَكْتَشِفَ الحَقيقَةَ أَبَداً .

وَأَكْمَلْتُ كَلامي قائِلاً : « أَنا أُسْترالِيٌّ ، وَعادَةً لا أَحْمِلُ الكَثيرَ مِنَ المَلابِسِ مَعي .»

صاحَ قائِلاً : « أَ أَنْتَ أُسْترالِيٌّ ؟ عَظيمٌ ! أَنا أَسْعَدُ رَجُلٍ في اسْكُتْلَنْدا ! فَأَنْتَ تُوافِقُ بِالطَّبْعِ عَلى نِظامِ التِّجارَةِ الحُرَّةِ ؟»

أَجَبْتُ بِسُرْعَةٍ : « أَجَلْ .» وَلَكِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ بِالضَّبْطِ ماذا كانَ يَقْصِدُ !

قالَ : « هذا رائِعٌ ؛ فَنِظامُ التِّجارَةِ الحُرَّةِ هُوَ أَفْضَلُ شَيْءٍ لِبريطانْيا . وَسَيَكونُ في مَقْدورِكَ مُساعَدَتي اللَّيْلَةَ .» وَأَمْسَكَ بِذِراعي وَجَذَبَني ناحِيَةَ سَيّارَتِهِ .

وَبَعْدَ ثَلاثِ دَقائِقَ وَصَلْنا إلى مَنْزِلِهِ . وَأَخْرَجَ ثَلاثَ حُلَلٍ أَوْ أَرْبَعاً مِنْ عِنْدِهِ ، وَ وَضَعَها فَوْقَ الفِراشِ . وَأَعارَني أَيْضاً أَحَدَ قُمْصانِهِ ، وَاخْتَرْتُ حُلَّةً زَرْقاءَ وَارْتَدَيْتُها . ثُمَّ اصْطَحَبَني إلى المَطْبَخِ ، حَيْثُ كانَ ثَمَّةَ بَقايا طَعامٍ عَلى المِنْضَدَةِ .

قالَ : « إذا لَمْ تُسْرِعْ فَقَدْ نَتَأَخَّرُ . تَناوَلْ شَيْئاً الآنَ ، وَخُذْ بَعْضَ الخُبْزِ في جَيْبِكَ ، وَعِنْدَما نَعودُ اللَّيْلَةَ فَسَوْفَ نَتَناوَلُ وَجْبَةً شَهِيَّةً . عَلَيْنا أَنْ نَكونَ في براتِلْبيرن في السّابِعَةِ تَقْريباً .»

وَتَناوَلْتُ فِنْجاناً مِنَ القَهْوَةِ وَبَعْضَ شَرائِحِ اللَّحْمِ البارِدِ ، وَ وَقَفَ الرَّجُلُ بِجِوارِ المِدْفَأَةِ وَبَدَأَ يَتَكَلَّمُ :

« لَقَدْ جِئْتَ في الوَقْتِ المُناسِبِ تَماماً يا سَيِّدُ ... عَفْواً ، فَأَنْتَ لَمْ تَذْكُرْ لي اسْمَكَ .»

قُلْتُ : « توسْدَن .»

قالَ : « آهِ ، توسْدَن ! في الحَقيقَةِ ، يا سَيِّدُ توسْدَن ، أَنَّني أَمُرُّ بِمُشْكِلَةٍ ، وَأَوَدُّ مِنْكَ أَنْ تُساعِدَني . فَثَمَّةَ اجْتِماعٌ عامٌّ اللَّيْلَةَ في براتِلْبيرن ، وَعَلَيَّ أَنْ أُلْقِيَ خُطْبَةً سياسِيَّةً ؛ فَأَنا مُرَشَّحُ الحِزْبِ اللّيبرالِيِّ عَنْ دائِرَةِ غالواي ، وبراتِلْبيرن هِيَ المَقَرُّ الرَّئيسِيُّ . وَفي الحَقيقَةِ لَقَدْ أَعْدَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ لِهذا الاجْتِماعِ ، وَكانَ مِنَ المَفْروضِ أَنْ يَحْضُرَ مِسْتر كرامبِلْتون ، رَئيسُ الوُزَراءِ اللّيبرالِيُّ السّابِقُ ، وَيُلْقِيَ كَلِمَةَ الافْتِتاحِ الرَّئيسِيَّةَ . وَلكِنّي تَلَقَّيْتُ مِنْهُ بَرْقِيَّةً بَعْدَ ظُهْرِ اليَوْمِ أَبْلَغَني فيها عَدَمَ إِمْكانِهِ الحُضورَ لِمَرَضِهِ . وَهذا يَعْني أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُلْقِيَ الخُطْبَةَ بِنَفْسي .»

قُلْتُ : « حَسَنٌ ، بِما أَنَّكَ المُرَشَّحُ ؛ فَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَسْتَطيعُ إِلْقاءَ الخُطْبَةِ .»

قالَ : « في اسْتِطاعَتي إِلْقاءُ خُطْبَةٍ قَصيرَةٍ ، وَلكِنْ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَشْرَ دَقائِقَ فَهذا كَثيرٌ بِالنِّسْبَةِ لي . وَآمُلُ أَنْ تَكونَ إِنْسانًا شَهْمًا يا توسْدَن وَتُساعِدَني ؛ فَبِاسْتِطاعَتِكَ أَنْ تُحَدِّثَ الحاضِرينَ في الاجْتِماعِ عَنْ كُلِّ جَوانِبِ التِّجارَةِ الحُرَّةِ في أُسْتراليا !»

وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ التِّجارَةِ الحُرَّةِ ، بَلْ كُنْتُ في حاجَةٍ

شَديدَةٍ إِلى مَنْ يُساعِدُني أَيْضًا ، وَرُبَّما كانَتْ هذِهِ فُرْصَتي !

قُلْتُ : « حَسَنٌ ، وَرَغْمَ أَنَّني لَسْتُ مُتَحَدِّثًا بَليغًا ، إِلّا أَنَّني سَأَتَحَدَّثُ إِلى أَصْدِقائِكَ عَنْ أُسْتراليا .»

وَعِنْدَئِذٍ غادَرْنا المَنْزِلَ مُتَّجِهَيْنِ إِلى براتِلْبيرن ، وَفي الطَّريقِ حَدَّثَني الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ قَليلاً ، وَمِنْ بَيْنِ الأَشْياءِ الَّتي أَخْبَرَني بِها شَيْءٌ طَريفٌ جِدًّا ، وَهُوَ أَنَّ أَباهُ وَأُمَّهُ مُتَوَفَّيانِ ، وَأَنَّهُ عاشَ مَعَ عَمِّهِ الَّذي يَشْغَلُ مَنْصِبَ السِّكْرِتيرِ العامِّ لِوِزارَةِ الخارِجِيَّةِ .

وَكانَ ذلِكَ نَبَأً مُثيرًا ؛ لِأَنَّ الَّذي يَشْغَلُ هذا المَنْصِبَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ شَخْصًا مُهِمًّا . وَرَغِبْتُ في مُقابَلَتِهِ ، وَ وَدِدْتُ لَوْ كانَ في اسْتِطاعَةِ ذلِكَ الرَّجُلِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا لِمُساعَدَتي .

وَسِرْنا بِالسَّيّارَةِ خِلالَ مَدينَةٍ صَغيرَةٍ ، حَيْثُ اسْتَوْقَفَنا اثْنانِ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ ، وَسَلَّطا عَلى وَجْهَيْنا نورَ مِصْباحَيْهِما ، فَأَحْسَسْتُ بِالاضْطِرابِ الشَّديدِ ، وَخَشيتُ أَنْ يَقوما بِالقَبْضِ عَلَيَّ .

قالَ أَحَدُ الشُّرْطِيَّيْنِ : « أَنا آسِفٌ ، يا سير هاري ؛ فَنَحْنُ نَبْحَثُ عَنْ سَيّارَةٍ مَسْروقَةٍ ، وَاعْتَقَدْنا أَنَّها هذِهِ السَّيّارَةُ .»

قالَ سير هاري مازِحًا : « كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . إِنَّ سَيّارَتي

قديمةٌ جدًّا ولا تُغري أحداً بِسرِقتِها !» ثُمَّ واصلْنا سيْرَنا .

كانَتِ السّاعَةُ السّابِعَةَ إلّا خَمْسَ دَقائِقَ عِنْدَما وَصَلْنا إلى براتْلبيرن . وَأَوْقَفَ سير هاري السَّيّارَةَ خارِجَ قاعَةِ اجْتِماعاتِ المَدينَةِ ، ثُمَّ دَخَلْنا . وَكانَ بِالقاعَةِ حَوالى خَمْسِمائَةِ شَخْصٍ .

وَ وَقَفَ رَجُلٌ وَأَلْقى كَلِمَةً قَصيرَةً أَوْضَحَ فيها أَنَّ السَّيِّدَ كرامْلِتون مَريضٌ وَلَمْ يَسْتَطِع المَجيءَ ، وَاسْتَطْرَدَ قائِلاً : « لكِنَّنا سُعَداءُ الحَظِّ جِدًّا اللَّيْلَةَ في براتْلبيرن لِوُجودِ خَطيبٍ مَشْهورٍ مِنْ أَسْتراليا ، وَلكِنْ سَوْفَ نَسْتَمِعُ أَوَّلاً إِلى كَلِمَةِ مُرَشَّحِ الحِزْبِ اللّيبرالِيِّ عَنْ دائِرَةِ براتْلبيرن .»

وَبَدَأَ سير هاري إِلْقاءَ كَلِمَتِهِ ، وَكانَ يُمْسِكُ في يَدِهِ بِحَوالى خَمْسينَ صَفْحَةً شَرَعَ يَقْرَأُ مِنْها . وَكانَتْ خُطْبَةً مُزْعِجَةً ، وَشَعَرْتُ بِالأَسَفِ الشَّديدِ مِنْ أَجْلِهِ ، فَأَحْيانًا كانَ يَنْظُرُ إِلى الأَوْراقِ ، وَ يَعْجزُ عَنْ أَنْ يَقولَ شَيْئًا . وَأَحْيانًا أُخرى كانَ يَنْسى مَوْضوعَ الخُطْبَةِ وَلا يَتَذَكَّرُ سِوى بَعْض جُمَلٍ مِنْ كِتابٍ ؛ فَيُكَرِّرُها كَتِلْميذٍ صَغيرٍ . وَكانَتْ أَفْكارُهُ خاطِئَةً تَمامًا . وَتَحَدَّثَ عَنِ الخَطَرِ الأَلْمانِيِّ وَكِدْتُ أَنْفَجِرُ ضاحِكًا عِنْدَما قالَ : « لَيْسَ ثَمَّةَ خَطَرٌ أَلْمانِيٌّ عَلى الإِطْلاقِ ؛ فَالحُكومَةُ هِيَ الَّتي اخْتَرَعَتْ ذَلِكَ . وَالأَلْمانُ يُريدونَ السَّلامَ ؛ لِذا

فَنَحْنُ لَسْنا بِحاجَةٍ إِلى جَيْشٍ ضَخْمٍ . وَنَحْنُ نُضَيِّعُ الأَمْوالَ العامَّةَ في الإِنْفاقِ عَلى السِّلاحِ وَالسُّفُنِ الحَرْبِيَّةِ .»

وَفَكَّرتُ في مُفَكِّرَةِ اسكدر السَّوْداءِ الصَّغيرَةِ ، فَخُطَطُ الأَلْمانِ لِلْحَرْبِ جاهِزَةٌ ، وَهُمْ لا يَبْغونَ السَّلامَ . وَقُمْتُ – بَعْدَ انْتِهاءِ سير هاري– بِإِلْقاءِ كَلِمَتي عَنْ أَسْتراليا ؛ فَشَرَحْتُ سِياسَةَ البَلَدِ وَخُطَطَهُ وَإِنْجازاتِ الحُكومَةِ اللّيبرالِيَّةِ . وَأَصْغى النّاسُ إِلَيَّ بِمُنْتَهى الأَدَبِ ، وَكانوا أَحْيانًا يَهْتِفونَ لي ، غَيْرَ أَنَّني تَجاهَلْتُ كُلَّ ما يَتَّصِلُ بِالتِّجارَةِ الحُرَّةِ .

وَقَدَّمَ جُمْهورُ الحاضِرينَ الشُّكْرَ لِكُلِّ المُتَحَدِّثينَ في نِهايَةِ الاجْتِماع . وَعُدْتُ أَنا وَسير هاري إِلى السَّيّارَةِ مَرَّةً أُخرى ، وَخَرَجْنا مِنْ مَدينَةِ براتْلبيرن .

قالَ : « لَقَدْ كانَتْ خُطْبَةً رائِعَةً يا توسْدَن ، وَقَدِ اسْتَمْتَعَ بِها الحاضِرونَ . أَ لَمْ تَسْمَعْهُمْ وَهُمْ يُحَيّونَكَ عِنْدَما ذَكَرْتَ كَلِمَةَ ليبرالِيٍّ (أَيْ حُرٌّ) ؟ وَالآنَ سَنَعودُ إِلى البَيْتِ ، وَسَيُمْكِنُكَ أَنْ تَتَناوَلَ وَجْبَةً شَهِيَّةً . وَأَوَدُّ أَنْ تَبيتَ اللَّيْلَةَ عِنْدي .»

وَبَعْدَ العَشاءِ جَلَسْنا بِجِوارِ المِدْفَأَةِ نَتَحَدَّثُ .

قُلْتُ لَهُ : « اِسْمَعْ يا سِير هاري ، أُريدُ أَنْ أَقولَ لَكَ شَيْئًا في غايَةِ الأَهَمِّيَّةِ . أَنْتَ إِنْسانٌ طَيِّبٌ ؛ وَلِذا فَلَنْ أُخْفِيَ عَنْكَ أَيَّ شَيْءٍ . لَقَدْ كانَتْ خُطَّتُكَ خاطِئَةً كُلُّها ! »

فَبَدَتْ عَلَيْهِ دَهْشَةٌ شَديدَةٌ وَقالَ : « أَ كانَتْ كَذلِكَ ؟! هَلْ تَقْصِدُ النُّقْطَةَ الخاصَّةَ بِالخَطَرِ الأَلْمانيِّ ؟ هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ سَيُهاجِمونَنا ؟ »

قُلْتُ : « مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يُهاجِمونا الشَّهْرَ القادِمَ . وَالآنَ اسْتَمِعْ إِلى هذِهِ القِصَّةِ . مُنْذُ عِدَّةِ أَيّامٍ قَتَلَ جاسوسٌ أَلْمانيٌّ صَديقًا لي في لَنْدَن ... »

وَلا أَزالُ أَذْكُرُ وَهَجَ نارِ المِدْفَأَةِ في حُجْرَةِ سير هاري ، وَأَنا مُسْتَلْقٍ عَلى مَقْعَدِيَ الوَثيرِ أَقُصُّ كُلَّ شَيْءٍ . ذَكَرْتُ لَهُ كُلَّ ما في مُفَكِّرَةِ اسْكَدر ، وَبِصِفَةٍ خاصَّةٍ التِّسْعُ وَالثَّلاثونَ دَرَجَةً ، وَالمَدُّ . وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ مُغامَرَتي مَعَ بائِعِ اللَّبَنِ وَالشُّرْطَةِ في الفُنْدُقِ .

بَعْدَ ذلِكَ قُلْتُ : « إِنَّ الشُّرْطَةَ تُحاوِلُ القَبْضَ عَلَيَّ بِسَبَبِ تِلْكَ الجَريمَةِ ، وَلكِنَّني أَسْتَطيعُ إِثْباتَ أَنَّني لَسْتُ قاتِلَ اسْكَدر . وَالحَقيقَةُ أَنَّني أَخْشى مِنْ أُولئِكَ الجَواسيسِ الأَلْمانِ ؛ فَهُمْ أَكْثَرُ فِطْنَةً مِنَ

الشُّرْطَةِ ؛ فَلَوْ أَنَّ الشُّرْطَةَ قَبَضَتْ عَلَيَّ لَدُبِّرَ لي عِنْدَئِذٍ حادِثٌ ، أَتَلَقّى فيهِ طَعْنَةَ سِكّينٍ في قَلْبي مِثْلَ اسْكَدر ! »

كانَ سير هاري يَتَطَلَّعُ إِلَيَّ بِاهْتِمامٍ ، فَسَأَلَني : « هَلْ أَنْتَ رَجُلٌ عَصَبِيُّ المِزاجِ ، يا سيدُ هَنّاي ؟ »

وَلَمْ أُجِبْهُ في الحالِ . وَتَناوَلْتُ سِكّينًا كَبيرَةً كانَتْ مُعَلَّقَةً عَلى الحائِطِ ، وَقُمْتُ بِأَداءِ لُعْبَةٍ روديسِيَّةٍ قَديمَةٍ ، فَقَذَفْتُ بِالسِّكّينِ إِلى أَعْلى في الهَواءِ ثُمَّ تَلَقَّفْتُها بِفَمي .

قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ تَعَلَّمْتُ هذِهِ اللُّعْبَةَ مُنْذُ سَنَواتٍ عَديدَةٍ ؛ وَالرَّجُلُ العَصَبِيُّ المِزاجِ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُؤَدِّيَها . »

اِبْتَسَمَ قائِلاً : « لا بَأْسَ يا هَنّاي ، أَنْتَ لَسْتَ في حاجَةٍ إِلى إِثْباتِ ذلِكَ . إِنَّني قَدْ لا أَعْرِفُ كَثيرًا في السِّياسَةِ ، لكِنَّني أَسْتَطيعُ التَّعَرُّفَ عَلى الرَّجُلِ الشَّريفِ ، وَأَنا أُصَدِّقُ ما قُلْتَهُ . قُلْ لي ما الَّذي أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَهُ لِمُساعَدَتِكَ ؟ »

قُلْتُ : « إِنَّ عَمَّكَ هُوَ السِّكْرِتيرُ العامُّ لِوِزارَةِ الخارِجِيَّةِ ، وَبِاسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا . وَأُريدُ مِنْكَ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيْهِ رِسالَةً تَسْأَلُهُ فيها إِذا كانَ مُمْكِنًا أَنْ أُقابِلَهُ قَبْلَ يَوْمِ ١٥ يونْيَه (حَزيران) . »

سألني : « وأيُّ اسم أذْكُرُه لَهُ ؟»

أجبْتُ : « توسْدَن ؛ فَمِنَ الأمانِ أنْ تنْسى اسْمَ هنّاي .»

وَجلَسَ سير هاري إلى المِنْضَدَةِ وكَتَبَ رِسالَةً جاءَ فيها :

« عمّي العزيز :

لَقَدْ أعْطَيْتُ رَجُلاً اسْمُهُ توسْدَن عُنْوانَكَ ، وَيَرْغَبُ في مُقابَلَتِكَ قَبْلَ يَوْم ١٥ يُونْيه .

أرْجو أنْ تَكونَ كَريماً مَعَهُ ، وَتُصَدِّقَ حِكايَتَهُ . وَعِنْدَما يَحْضُرُ لِمُقابَلَتِكَ سَوْفَ يَذْكُرُ لَكَ عِبارَةَ « بلاك ستّون » ، وَسَوْفَ يُغَنّي بَعْضَ مَقاطِعَ مِنْ أغْنِيَّةِ « آني لوري ».»

وَقالَ سير هاري : « أعْتَقِدُ أنَّ الأمْرَ هَكَذا عَلى ما يُرامُ . إنَّ اسْمَ عَمّي هُوَ سير وُلْتر بوليڤانْت ، وَمَسْكَنُهُ بِالقُرْبِ مِنْ أرْتِنْزول ، عَلى نَهْرِ كِنِّت . وَالآنَ ماذا تَطْلُبُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟»

أجَبْتُ : « هَلْ بِإمْكانِكَ أنْ تُعْطِيَني حُلَّةً قَديمَةً ، وَتُرِيَني خَريطَةَ غالواي ؟ إذْ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ تَحْضُرَ الشُّرْطَةُ إلى هُنا لِلْبَحْثِ عَنّي . وَبِإمْكانِكَ أنْ تُرِيَهُمُ السَّيّارَةَ في الوادي ، لَكِنْ لا تَقُلْ لَهُمْ أيَّ شَيْءٍ آخَرَ .»

سألني : « وَإذا جاءَ الجَواسيسُ ، فَماذا أقولُ لَهُمْ ؟»

أجَبْتُهُ : « قُلْ لَهُمْ إنَّني ذَهَبْتُ إلى لَنْدَن .»

وَأحْضَرَ سير هاري الحُلَّةَ وَخَريطَةَ غالواي ؛ فَأخَذْتُ أتَطَلَّعُ إلى الخَريطَةِ بِاهْتِمام ، وَتَتَبَّعْتُ خَطَّ سَيْرِ السِّكَكِ الحَديدِيَّةِ صَوْبَ الجَنوبِ .

قالَ سير هاري وَهُوَ يُشيرُ إلي الخَريطَةِ : « ذَلِكَ هُوَ الجُزْءُ المُوحِشُ في المِنْطَقَةِ ؛ فَاتَّجِهْ مُباشَرَةً إلى ذَلِكَ الطَّريقِ ، ثُمَّ انْحَرِفْ يَميناً . وَيَنْبَغي أنْ تَكونَ فَوْقَ التِّلالِ قَبْلَ إشْراقَةِ الصَّباح ، وَسَتَكونُ في أمانٍ تامٍّ هُناكَ . وَلَكِنْ يَنْبَغي أنْ تُسافِرَ إلى الجَنوبِ قَبْلَ يَوْم ١٢ أوْ ١٣ يونْيه .» ثُمَّ أعْطاني دَرّاجَةً قَديمَةً .

وَفي الثّانِيَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ غادَرْتُ البَيْتَ . وَفي السّاعَةِ الخامِسَةِ أشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، وَكُنْتُ قَدْ قَطَعْتُ حَوالى ثَلاثينَ كيلو مِتْراً . وَكانَتِ التِّلالُ العالِيَةُ ، وَالأوْدِيَةُ الفَسيحَةُ الخَضْراءُ تَحوطُني مِنْ كُلِّ جانِبٍ .

الفَصْلُ الخامِسُ

عامِلُ الطُّرُقِ ذو النَّظّارَةِ

اِسْتَرَحْتُ لَحْظَةً فَوْقَ قِمَّةِ التَّلِّ ، وَكانَ الطَّريقُ يَمْتَدُّ أمامي مُخْتَرِقًا مِساحاتٍ مُسَطَّحَةً حَتّى يَصِلَ إلى أسْفَلِ الوادي . وَأبْصَرْتُ مَنْزِلاً صَغيرًا قائِمًا بَيْنَ الحُقولِ ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ عَلاماتٌ أخْرى لِلْحَياةِ . وَكُنْتُ مُجْهَدًا فَتَمَدَّدْتُ عَلى الأرْضِ وَأغْلَقْتُ عَيْنَيَّ .

كانَتِ السّاعَةُ السّابِعَةَ عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ عَلى صَوْتِ الطّائِرَةِ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَلَمْ أتَحَرَّكْ . وَكانَتْ تَطيرُ فَوْقَ التِّلالِ في شَكْلِ دَوائِرَ ضَيِّقَةٍ. وَبَعْدَ دَقيقَةٍ اتَّجَهَتْ نَحْوي ، وَاسْتَطَعْتُ رُؤْيَةَ قائِدِ الطّائِرَةِ وَمَعَهُ رَجُلٌ آخَرُ . وَكانَ كِلاهُما يَنْظُرُ إلَيَّ ، وَتَأكَّدْتُ تَمامًا أنَّهُما قَدْ تَعَرَّفا عَلَيَّ . ثُمَّ صَعِدَتِ الطّائِرَةُ إلى أعْلى بِسُرْعَةٍ وَاتَّجَهَتْ شَرْقًا .

وَكانَ عَلَيَّ أنْ أهْرُبَ فَوْرًا مِنْ ذَلِكَ المَكانِ ؛ لِئَلا يَعودَ أعْدائي

وَيُفَتِّشوا عَنّي في التِّلالِ . وَمِنَ المُؤَكَّدِ أنَّهُمْ رَأَوْا دَرّاجَتي ؛ لِذا كانَ عَلَيَّ أنْ أتَخَلَّصَ مِنْها .

وَتَرَكْتُ الطَّريقَ الرَّئيسِيَّ ، وَأخَذْتُ أدْفَعُ الدَّرّاجَةَ أمامي مَسافَةَ ثَلاثينَ مِترًا تَقْريبًا . وَأبْصَرْتُ حُفْرَةً مَليئَةً بِالماءِ فَقَذَفْتُ الدَّرّاجَةَ فيها .

وَكانَ الجَوُّ حارًّا في ذَلِكَ اليَوْمِ وَالسَّماءُ صافِيَةٌ ؛ فَاسْتَطَعْتُ رُؤْيَةَ غَرْبِ الطَّريقِ وَشَرْقِهِ ، وَكانَ خالِيًا تَمامًا . وَلَكِنَّني كُنْتُ مُتَأكِّدًا أنَّ أعْدائي لا بُدَّ أنْ يَعودوا ثانِيَةً إلى ذَلِكَ الطَّريقِ ؛ لِذا فَقَدْ عُدْتُ أدْراجي إلى التِّلالِ مُتَّجِهًا نَحْوَ الشَّمالِ .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الوَقْتِ نَظَرْتُ خَلْفي عَبْرَ التِّلالِ ، وَعَلى كِلا الجانِبَيْنِ . وَلَمّا كانَ بَصَري قَوِيًّا ؛ فَقَدْ رَأيْتُ عَلى بُعْدٍ بَعْضَ الرِّجالِ يَسيرونَ مُتَفَرِّقينَ ، وَيَتَّجِهونَ ناحِيَةَ الأرْضِ المُرْتَفِعَةِ .

وَجَرَيْتُ إلى الأمامِ وَلَكِنَّني لَمْ أبْتَعِدْ كَثيرًا . وَكانَ ثَمَّةَ كَثيرٌ مِنَ الرِّجالِ يُفَتِّشونَ الواديَ المُجاوِرَ . وَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَنْ أسْتَطيعَ الهَرَبَ مِنْ هُنا ؛ لأنَّني إذا حاوَلْتُ الهَرَبَ فَسَوْفَ يَرَوْنَني ؛ لِذا يَنْبَغي عَلَيَّ البَقاءُ في الأرْضِ المُرْتَفِعَةِ وَالاخْتِباءُ في مَكانٍ ما . »

وَجَرَيْتُ فَوْقَ قِمَّةِ التَّلِّ حَتّى وَصَلْتُ إلى الطَّريقِ مَرَّةً ثانِيَةً . وَعِنْدَ

مُفْتَرَقِ طُرُقٍ كانَ يَقِفُ عامِلُ طُرُقٍ ، وَأَدواتُهُ مُلْقاةٌ إِلى جانِبِهِ ، يَسْتَعِدُّ لِلْعَمَلِ ، وَلكِنَّهُ كانَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ شَديدٍ .

عِنْدَما اقْتَرَبْتُ مِنْهُ تَطَلَّعَ إِلَيَّ ، وَقالَ : « هَذِهِ مُهِمَّةٌ شاقَّةٌ ، وَلا أَسْتَطيعُ القِيامَ بِها اليَوْمَ . فَالحَقيقَةُ أَنّي مَريضٌ جِدًّا .»

وَكانَ خَشِنَ المَظْهَرِ يَرْتَدي نَظّارَةً كَبيرَةً ، وَكانَتْ عَيْناهُ جِدَّ حَمْراوَيْنِ .

سَأَلْتُهُ ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ الإِجابَةَ : « ما الأَمْرُ ؟ أَنْتَ تَقومُ بِهذا العَمَلِ يَوْمِيًّا ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ لِماذا لا تَسْتَطيعُ القِيامَ بِهِ اليَوْمَ ؟»

أَجابَ : « أَنا أَقومُ بِهِ يَوْمِيًّا فِعْلاً ، لكِنَّ ابْنَتي لا تَأْتي مِنْ لَنْدَن يَوْمِيًّا . لَقَدْ وَصَلَتِ ابْنَتي مَساءَ أَمْسِ وَاحْتَفَلْنا بِها .» وَخَلَعَ نَظّارَتَهُ وَ واصَلَ كَلامَهُ : « لَقَدْ سَهِرْتُ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، وَأَشْعُرُ بِصُداعٍ في رَأْسي .»

قُلْتُ : « أَنا آسِفٌ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ الفِراشَ هُوَ أَنْسَبُ مَكانٍ لَكَ .»

قالَ : « لكِنَّ المَسْأَلَةَ لَيْسَتْ بِمِثْلِ هذِهِ السُّهولَةِ ؛ فَقَدْ تَلَقَّيْتُ رِسالَةً بِالأَمْسِ جاءَ فيها أَنَّ مُفَتِّشَ الطُّرُقِ الجَديدَ سَيَحْضُرُ اليَوْمَ

لِيَتَفَقَّدَ سَيْرَ العَمَلِ هُنا . فَإِذا ذَهَبْتُ إِلى الفِراشِ ، فَلَنْ يَجِدَني هُنا ، وَبِالتّالي سَأَفْقِدُ وَظيفَتي .»

وَفَجْأَةً خَطَرَتْ بِبالي فِكْرَةٌ رائِعَةٌ ، فَقُلْتُ لَهُ : « اِسْمَعْ ، رُبَّما أَسْتَطيعُ مُساعَدَتَكَ . إِذا كُنْتَ تَشْعُرُ بِأَنَّكَ مُتْعَبٌ وَلا تَسْتَطيعُ العَمَلَ ، فَبِإِمْكانِكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلى الفِراشِ . هَلِ المُفَتِّشُ الجَديدُ يَعْرِفُكَ جَيِّداً ؟»

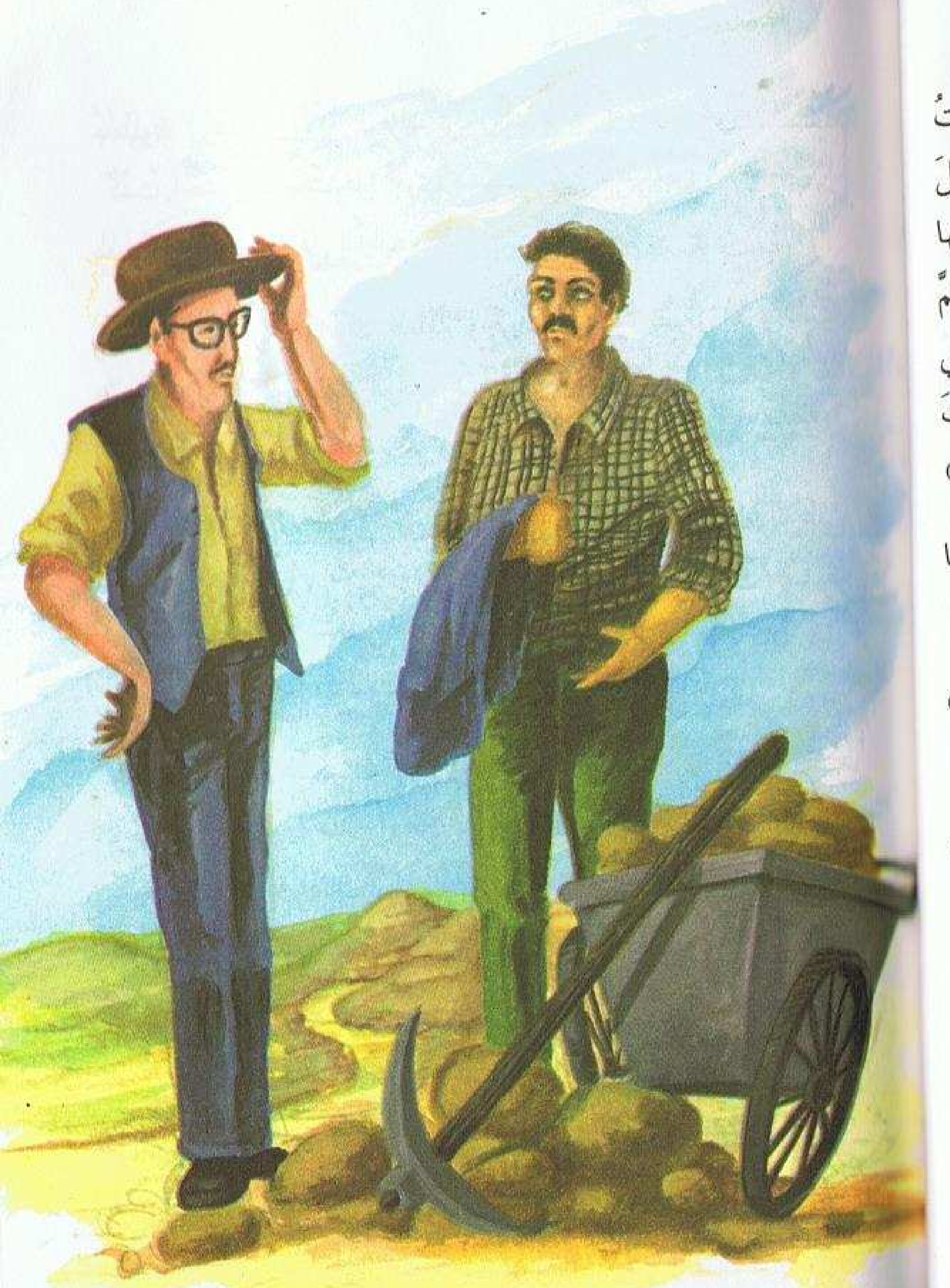
أَجابَ : « لا ! فَأَنا لَمْ أُقابِلْهُ مِنْ قَبْلُ عَلى الإِطْلاقِ ، لكِنَّني سَمِعْتُ عَنْهُ أَنَّهُ يَتَنَقَّلُ في المِنْطَقَةِ بِسَيّارَةٍ صَغيرَةٍ .»

سَأَلْتُهُ : « أَيْنَ بَيْتُكَ ؟»

أَشارَ إِلى ذَلِكَ البَيْتِ المَوْجودِ بَيْنَ الحُقولِ .

قُلْتُ : « عَظيمٌ ! فَلْتَذْهَبْ أَنْتَ إِلى الفِراشِ ، وَلْتَنَمْ في سَلامٍ ، وَسَأَقومُ بِعَمَلِكَ اليَوْمَ . وَإِذا كانَ المُفَتِّشُ لا يَعْرِفُكَ ؛ فَلَنْ يَعْرِفَني بِالطَّبْعِ .»

نَظَرَ إِلَيَّ بِامْتِنانٍ وَقالَ : « أَنْتَ إِنْسانٌ لَطيفٌ جِدًّا . وَسَيَكونُ العَمَلُ سَهْلاً جِدًّا ، وَلَنْ تَحْتاجَ إِلى بَذْلِ مَجْهودٍ كَبيرٍ .»



وَأشارَ إلى كَوْمَةٍ مِنَ الحِجارَةِ وَمِطْرَقَةٍ ، وَقالَ : « لَقَدْ قُمْتُ بِتَكْسيرِ هَذِهِ الحِجارَةِ بِالأَمْسِ ، وَلَيْسَ مَطْلوباً مِنْكَ اليَوْمَ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ ، وَما عَلَيْكَ سِوى أَنْ تَأْخُذَ العَرَبَةَ ذاتَ العَجَلَتَيْنِ ، وَتَمْضِيَ بِها عَلى الطَّريقِ حَتّى تَصِلَ إلى كَوْمَةِ الحِجارَةِ ؛ فَتَمْلأُها بِالحِجارَةِ ثُمَّ تَعودَ لِتُفْرِغَها هنا . إنَّ اسْمي أَلِكْسَنْدَر تيرنْبل ، وَلكِنَّ أَصْدِقائي يُسَمّونَني « ذا النَّظّارَةِ » . وَعَلَيْكَ عِنْدَما يَأْتي المُفَتِّشُ أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ بِلُطْفٍ ، وَتُنادِيَهُ بِـ « سَيِّدي » ، وَسَوْفَ يُسْعِدُهُ ذَلِكَ تَماماً . »

قُلْتُ : « لَعَلَّ المُفَتِّشَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَلْبَسُ نَظّارَةً فَدَعْني أَقْتَرِضْها مِنْكَ اليَوْمَ . »

ضَحِكَ ثانِيَةً وَقالَ : « حَسَنٌ ، حَسَنٌ ، إِنَّهُ تَصَرُّفٌ لَبِقٌ . » وَأَعْطاني نَظّارَتَهُ وَقُبَّعَتَهُ القَديمَةَ المُتْرَبَةَ .

وَخَلَعْتُ مِعْطَفي وَأَعْطَيْتُهُ إِيّاهُ قائِلاً : « خُذْ هذا مَعَكَ إِلى البَيْتِ ، وَاحْفَظْهُ لي عِنْدَكَ . »

بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَني وَانْصَرَفَ .

وَلَمْ تَمْضِ عَشْرُ دَقائِقَ إِلّا كُنْتُ أُشْبِهُ بِعامِلِ طُرُقٍ ، فَقَدْ نَثَرْتُ تُراباً عَلى بَنْطَلوني وَحِذائي ، وَرَبَطْتُ بَنْطَلوني أَسْفَلَ الرُّكْبَتَيْنِ مِثْلَ

بَنْطَلونِ تيرنبُل . وَلأنَّ الجَواسيسَ الألمانَ لا يَفوتُهُمْ شَيْءٌ ؛ فَقَدْ كُنْتُ أخْشى أنْ يَكْتَشِفوا أمْري بِسَبَبِ يَدَيَّ النَّظيفَتَيْنِ النّاعِمَتَيْنِ ؛ لِذا فَقَدْ دَعَكْتُهُما في التُّرابِ .

كانَ تيرنبُل قَدْ تَرَكَ طَعامَهُ وَجَريدَتَهُ بجِوارِ الطَّريقِ ، وَكانَتِ السّاعَةُ الثّامِنَةَ في ذَلِكَ الوَقْتِ ، وَكُنْتُ أشْعُرُ بِالجوعِ تَماماً ؛ لِذا فَقَدِ اسْتَوْلَيْتُ عَلى كِسْرَةِ خُبْزٍ وَقِطْعَةِ جُبْنٍ ، وَتَناوَلْتُ وَجْبَةً سَريعَةً .

بَعْدَ ذَلِكَ بَدَأْتُ أمارِسُ عَمَلي الجَديدَ ، وَأخَذْتُ أدْفَعُ العَرَبَةَ عَلى الطَّريقِ ذَهاباً وَإياباً . وَبَيْنَما كُنْتُ أقومُ بِالعَمَلِ تَذَكَّرْتُ صَديقاً قَديماً مِنْ روديسيا ، كانَ يَعْمَلُ شُرْطِيّاً عِنْدَما عَرَفْتُهُ ، وَكانَ يَقومُ بِأعْمالٍ غَريبَةٍ طَوالَ حَياتِهِ ، وَكَثيراً ما كانَ يَتَعَرَّضُ لِلْخَطَرِ ، وَمِنْ هُنا عَرَفَ قيمَةَ التَّنَكُّرِ المُتْقَنِ . وَقَدْ دَأَبَ عَلى أنْ يَقولَ : « إنَّ التَّنَكُّرَ وَحْدَهُ لا يَكْفي يا هَنّاي ؛ فَلا بُدَّ أنْ تُحاوِلَ أنْ تَكونَ شَخْصاً آخَرَ . وَيَجِبُ أنْ تُصَدِّقَ ذَلِكَ أنْتَ نَفْسُكَ . فَإذا لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَفْعَلَ ، فَإنَّ تَنَكُّرَكَ سَرْعانَ ما يَنْكَشِفُ .»

وَهَكَذا تَخَيَّلْتُ نَفْسي آنَذاكَ عامِلَ طُرُقٍ ، وَفَكَّرْتُ في حَياتي وَوَظيفَتي ، وَكَيْفَ أنَّني أعيشُ في بَيْتٍ صَغيرٍ بِالوادي ، وَأنَّ ابْنَتي جاءَتْ في اليَوْمِ السّابِقِ ، وَأنَّنا أقَمْنا لَها حَفْلَةً ، وَأنَّني سَهِرْتُ حَتّى

شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ وَلَكِنَّ المُفَتِّشَ يُريدُ أنْ يَراني اليَوْمَ ، وَيَنْبَغي عَلَيَّ أنْ أنْتَظِرَ قُدومَهُ .

وَقُمْتُ بِالعَمَلِ لِمُدَّةِ ساعَةٍ أوْ أكْثَرَ وَأصْبَحْتُ مُتَّسِخاً تَماماً ، فَقَدْ كانَتْ مُهِمَّةً مَليئَةً بِالتُّرابِ . وَفَجْأةً سَمِعْتُ صَوْتاً يَنْبَعِثُ عَلى الطَّريقِ فَتَطَلَّعْتُ إلى مَصْدَرِ الصَّوْتِ . وَكانَتْ ثَمَّةَ سَيّارَةٌ صَغيرَةٌ قَدْ تَوَقَّفَتْ وَنَزَلَ مِنْها شابٌّ وَشَرَعَ يَتَحَدَّثُ إلَيَّ .

سَألَني : « هَلْ أنْتَ ألِكْسَنْدَر تيرنبُل ؟ أنا مُفَتِّشُ الطُّرُقِ الجَديدُ ، وَمَكْتَبي في بَلَدِيَّةِ المَدينَةِ في نيوتون – ستيوارت . إنَّ الطَّريقَ عَلى ما يُرامُ هُنا يا تيرنبُل ، وَثَمَّةَ مِنْطَقَةٌ رَخْوَةٌ عَلى بُعْدِ كيلومِتْرٍ مِنْ هُنا ، وَيَنْبَغي عَلَيْكَ أنْ تُنَظِّفَ جَوانِبَ الطَّريقِ . سَأعودُ مَرَّةً ثانِيَةً الأسْبوعَ القادِمَ . أسْعَدْتَ صَباحاً .»

وَانْطَلَقَ بِسَيّارَتِهِ وَشَعَرْتُ بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ ؛ فَقَدْ جازَ عَلَيْهِ تَنَكُّري . وَفي حَوالى السّاعَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ ظَهَرَ مُزارِعٌ يَسوقُ أمامَهُ قَطيعاً مِنَ الغَنَمِ عَلى الطَّريقِ ، وَعِنْدَما رَآني تَوَقَّفَ ، وَسَألَني : « ماذا حَدَثَ لِذي النَّظّارَةِ ؟»

أجَبْتُهُ : « إنَّهُ مَريضٌ ، وَأنا أقومُ بِالعَمَلِ بَدَلاً مِنْهُ لِعِدَّةِ أيّامٍ .»

وَعِنْدَ الظُّهْرِ مَرَّتْ بي سَيّارَةٌ كَبيرَةٌ ، وَتَوَقَّفَتْ عَلى بُعْدِ مِئَةِ مِتْرٍ ،

وَنزَلَ مِنها ثَلاثةُ رِجالٍ اتَّجهوا ناحِيَتي بِبُطْءٍ .

كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وَكانا قَدْ قاما بِزِيارَةِ فُنْدُقِ غالواي ، وَكانَ أَحَدُهُما نَحيفاً أَسْوَدَ الشَّعْرِ ، وَ الآخَرُ بَديناً إلى حَدٍّ ما . وَلَمْ أَعْرِفِ الرَّجُلَ الثّالِثَ الَّذي كانَ أَكْبَرَ سِنّاً مِنْهُما .

قالَ لي الرَّجُلُ الثّالِثُ : « صَباحُ الخَيْرِ ! إِنَّكَ تَقومُ بِمِهْنَةٍ لَطيفَةٍ وَسَهْلَةٍ هُنا . »

وَلَمْ أُجِبْهُ في الحالِ ، وَأَنْزَلْتُ العَرَبَةَ عَلى الأَرْضِ ، وَاعْتَدَلْتُ بِبُطْءٍ . وَكانوا يَنْظُرونَ إِلَيَّ بِاحْتِراسٍ دونَ أَنْ يَفوتَهُمْ شَيْءٌ .

قُلْتُ : « ثَمَّةَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِنْ تِلْكَ المِهْنَةِ ، لكِنْ مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ ثَمَّةَ ما هُوَ أَحْسَنُ مِنْها . وَكُنْتُ أُفَضِّلُ أَنْ أَقومَ بِمِهْنَتِكُمْ وَأَجْلِسَ طَوالَ اليَوْمِ في هَذِهِ السَّيّارَةِ الكَبيرَةِ . »

كانَ الرَّجُلُ الَّذي تَكَلَّمَ يَتَطَلَّعُ إِلى جَريدَةِ تيرنبُل . فَسَأَلَني : « هَلْ تَصِلُكَ الجَرائِدُ كُلَّ يَوْمٍ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « نَعَمْ تَصِلُني ، لكِنَّني لَمْ أَحْصُلْ عَلَيْها لِثَلاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ أَيّامٍ مَضَتْ . »

وَالْتَقَطَ الرَّجُلُ الصَّحيفَةَ وَنَظَرَ إِلى التّاريخِ المَكْتوبِ عَلَيْها ، ثُمّ

وَضَعَها مَكانَها ثانِيَةً . وَنَظَرَ الرَّجُلُ النَّحيفُ إِلى حِذائي وَقالَ بِضْعَ كَلِماتٍ بِالأَلْمانِيَّةِ .

عِنْدَئِذٍ قالَ الرَّجُلُ الأَكْبَرُ سِنّاً : « إِنَّكَ تَنْتَعِلُ حِذاءً جَميلاً . هَلِ اشْتَرَيْتَهُ مِنْ هُنا ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لا ! هذا الحِذاءُ مِنْ لَنْدَن ، وَقَدْ حَصَلْتُ عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ كانَ يَصْطادُ هُنا العامَ الماضِيَ . تُرى ما اسْمُهُ ؟ » وَأَخَذْتُ أَفْرُكُ أُذُني مُتَظاهِراً بِتَذَكُّرِ اسْمِهِ .

قالَ الرَّجُلُ البَدينُ بِالأَلْمانِيَّةِ : « هَيّا بِنا ؛ فَهذا الرَّجُلُ لا غُبارَ عَلَيْهِ . »

وَسَأَلوني سُؤالاً أَخيراً : « هَلْ مَرَّ أَحَدٌ مِنْ هُنا مُبَكِّرًا صَباحَ اليَوْمِ ، لَعَلَّهُ كانَ يَرْكَبُ دَرّاجَةً ؟ »

وَفَكَّرْتُ في هذا السُّؤالِ لَحْظَةً ، ثُمَّ قُلْتُ : « في الحَقيقَةِ ، لَقَدْ تَأَخَّرْتُ بَعْضَ الشَّيْءِ في المَجيءِ إِلى هُنا هَذا الصَّباحَ ؛ لأَنَّ ابْنَتي عادَتْ مِنْ لَنْدَن مَساءَ أَمْسِ ، وَاحْتَفَلْنا بِقُدومِها اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، وَخَرَجْتُ مِنَ البَيْتِ حَوالى السّابِعَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أَحَدٌ عَلى الطَّريقِ آنَذاكَ . »

وَ وَدَّعَني الرِّجالُ الثَّلاثَةُ وَانْصَرفوا إلى سَيّارَتِهِمْ ، وَبَعْدَ ثَلاثِ دَقائِقَ انْطَلَقوا بِها .

وَشَعَرْتُ بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ لِرَحيلِهِمْ . وَ واصَلْتُ عَمَلي ، وَكُنْتُ في ذَلِكَ حَكيماً ؛ إذْ سَرْعانَ ما عادوا بِالسَّيّارَةِ ، وَنَظَروا إلَيَّ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَهُمْ يَمُرّونَ بي .

وَأَتَيْتُ عَلى طَعامِ تيرنبل المُكَوَّنِ مِنَ الخُبْزِ وَالجُبْنِ . وَفي حَوالَى الخامِسَةِ كُنْتُ قَدْ فَرَغْتُ مِنَ العَمَلِ .

وَلكِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئاً عَمّا أَفْعَلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ كُنْتُ عَلى يَقينٍ تَماماً بِأَنَّ أَعْدائي لا يَزالونَ يَحومونَ حَوْلَ المِنْطَقَةِ . فَلَوْ أَنَّني تَمَشَّيْتُ في المِنْطَقَةِ لاسْتَوْقَفوني ؛ لِذا عَلَيَّ أَنْ أَفِرَّ مِنْهُمْ .

وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ إلى بَيْتِ تيرنبل ؛ لِأُعيدَ إلَيْهِ أَدَواتِهِ وَأَسْتَرِدَّ مِعْطَفي ، وَأَبْقى هُناكَ حَتّى يَحِلَّ الظَّلامُ آمِلاً الفِرارَ بَعْدَ ذَلِكَ عَبْرَ التِّلالِ .

وَلكِنْ فَجْأَةً أَقْبَلَتْ سَيّارَةٌ أُخْرى وَتَوَقَّفَتْ . وَكانَ بِها رَجُلٌ نادى عَلَيَّ قائِلاً : « هَلْ مَعَكَ عُلْبَةُ ثِقابٍ ؟»

وَعِنْدَما نَظَرْتُ إلَيْهِ عَرَفْتُهُ عَلى الفَوْرِ . وَكانَتْ هذِهِ فُرْصَةً طَيِّبَةً

لِلْغايَةِ . كانَ اسْمُهُ مارْماديوك جُوبْلي ، وَكُنْتُ قَدْ قابَلْتُهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ في لَنْدَن ؛ فَكَرِهْتُهُ . وَكانَ يُصادِقُ الشُّبّانَ الأَثْرِياءَ ، وَالنِّسْوَةَ العَجائِزَ اللاتي كُنَّ يَدْعونَهُ كَثيراً لِزِيارَةِ بُيوتِهِنَّ . وَعَلى أَيَّةِ حالٍ ، كانَ جُوبْلي شَخْصاً ضَعيفاً لا يَقْدِرُ عَلى إيذائي ، فَقَرَّرْتُ التَّصَرُّفَ بِسُرْعَةٍ .

قُلْتُ : « أَهْلاً ، يا جُوبْلي . إنَّها مُفاجَأَةٌ أَنْ أَراكَ هُنا .»

شَحَبَ وَجْهُهُ وَسَأَلَني بِعَصَبِيَّةٍ : « مَنْ أَنْتَ ؟ »

قُلْتُ : « أَنا هَنّاي ، مِنْ روديسيا ؛ أَلا تَتَذَكَّرُني ؟»

صاحَ قائِلاً : « هَنّاي ، القاتِلُ !»

قُلْتُ : « بِالضَّبْطِ . وَالآنَ أَصْغِ إلَيَّ . إذا لَمْ تُطِعْ أَوامِري بِسُرْعَةٍ؛ فَسَوْفَ أُصْبِحُ قاتِلَ جُوبْلي أَيْضاً . أَعْطِني مِعْطَفَكَ وَقُبَّعَتَكَ .»

وَكانَ خائِفاً جِدًّا ، حَتّى إنَّهُ أَطاعَني عَلى الفَوْرِ . وَارْتَدَيْتُ مِعْطَفَهُ الجَديدَ فَوْقَ المَلابِسِ المَليئَةِ بِالتُّرابِ ، وَ وَضَعْتُ قُبَّعَتَهُ فَوْقَ رَأْسي ، ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ نَظّارَةَ تيرنبل وَقُبَّعَتَهُ القَديمَةَ المُتَّسِخَةَ ، وَقُلْتُ لَهُ : « ارْتَدِ هذِهِ الأَشْياءَ لِعِدَّةِ دَقائِقَ ؛ فَهِيَ أَدَواتٌ جَيِّدَةٌ لِلتَّنَكُّرِ .»

وَحِرْتُ أيَّ طَرِيقٍ أسْلُكُ ؟ وَكانَ جُوبْلي قَدْ جاءَ مِنْ ناحِيَةِ الشَّرْقِ ؛ فَقَرَّرْتُ أنْ أعودَ مِنْ ذَلِكَ الطَّريقِ لأنَّ أعْدائي إذا كانوا يُراقِبونَ الطَّريقَ فَسوفَ يَتَعَرَّفونَ عَلى السَّيّارَةِ ، وَأعْتَقِدُ أنَّهُمْ لَنْ يُوقِفوها . وَأدَرْتُ السَّيّارَةَ وَانْطَلَقْتُ بِها .

قُلْتُ لَهُ : « وَالآنَ اِسْمَعْ يا جُوبْلي : إذا تَصَرَّفْتَ تَصَرُّفًا لائِقًا فَلَنْ أؤْذِيَكَ . وَكُلُّ ما أرْجوهُ ألّا تَقومَ بِخُدْعَةٍ أوْ تَتَكَلَّمَ . وَتَذَكَّرْ أنَّني قاتِلٌ ؛ فَإذا تَسَبَّبْتَ في أيَّةِ مَتاعِبَ ؛ قَتَلْتُكَ . »

وَسِرْنا بِالسَّيّارَةِ مَسافَةً أكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ كيلو مِتْراتٍ عَبْرَ الوادي . وَكانَ هُناكَ عَديدٌ مِنَ الرِّجالِ يَقِفونَ عِنْدَ بَعْضِ المُنْحَنَياتِ أثْناءَ انْطِلاقِنا بِسُرْعَةٍ بِالسَّيّارَةِ . وَكانوا يَنْظُرونَ إلى السَّيّارَةِ بِاحْتِراسٍ ، لكِنَّهُمْ لَمْ يُحاوِلوا إيقافَنا . وَفي حَوالى السّابِعَةِ انْحَرَفْنا في طَريقٍ ضَيِّقٍ وَانْطَلَقْنا إلى التِّلالِ .

وَأصْبَحَتِ القُرى وَالبُيوتُ وَراءَنا . وَفي النِّهايَةِ أوْقَفْتُ السَّيّارَةَ في مَكانٍ هادِئٍ وَتَرَكْتُها لِجُوبْلي . وَأعْطَيْتُهُ مِعْطَفَهُ وَقُبَّعَتَهُ كَذَلِكَ ، وَاسْتَعَدْتُ نَظّارَةَ تيرنْبُل وَقُبَّعَتَهُ القَديمَةَ .

قُلْتُ لَهُ : « أشْكُرُكَ . الآنَ يُمْكِنُكَ الذَّهابُ ، وَإبْلاغُ الشُّرْطَةِ . »

وَانْطَلَقَ بِالسَّيّارَةِ ، وَأخَذْتُ أراقِبُ أضْواءَها الخَلْفِيَّةَ الحَمْراءَ ، وَهِيَ تَخْتَفي بَعيدًا .

الفَصْلُ السّادِسُ

مُغامَرتي مَعَ الرَّجُلِ الأصْلَع

كانَتْ لَيْلَةً بارِدَةً ، وَكُنْتُ جائِعاً . فَمِعْطَفي كانَ مَعَ تيرِنْبُل ، وَساعَتي وَمُفَكِّرَةُ اسكَدر داخِلَ أحَدِ جُيُوبِهِ . أمّا نُقودي فَكانَتْ داخِلَ جَيْبِ بَنْطَلوني .

وَاسْتَلْقَيْتُ وَسْطَ بَعْضِ الأعْشابِ الطَويلَةِ ، وَلكِنّني لَمْ أسْتَطِعِ النَّوْمَ . وَأخَذْتُ أفَكِّرُ في كُلِّ النّاسِ الَّذينَ ساعَدوني ، وَانْتَهَيْتُ إلى أنّني رَجُلٌ مَحظوظٌ جِدًّا .

كانَ الطَّعامُ هُوَ مُشْكِلَتي الرَّئيسِيَّةَ . وَأغْلَقْتُ عَيْنَيَّ فَتَراءَتْ لي شَرائِحُ لَحْمٍ سَميكَةٌ فَوْقَ طَبَقٍ أبْيَضَ . وَتَذَكَّرْتُ كُلَّ الوَجَباتِ الشَّهِيَّةِ الَّتي أكَلْتُها في لَنْدَن ، وَكَيْفَ كُنْتُ أرْفُضُ تَناوُلَ الفاكِهَةِ

بَعْدَ الطَّعامِ . أمّا الآنَ فَأنا عَلى اسْتِعْدادٍ لِدَفْعِ خَمْسَةِ جُنَيْهاتٍ مُقابِلَ تُفّاحَةٍ .

وَقُبَيْلَ الصَّباحِ نِمْتُ قَليلاً ، وَلكِنَّني اسْتَيْقَظْتُ في حَوالى السّادِسَةِ ، وَنَهَضْتُ وَأخَذْتُ أتَطَلَّعُ إلى الوادي ، ثُمَّ فَجأة لاحَ أمامَ ناظِرَيَّ شَيْءٌ ؛ فاسْتَلْقَيْتُ عَلى ظَهْري في الحالِ في دَهْشَةٍ شَديدَةٍ .

كانَ ثَمَّةَ رِجالٌ عِنْدَ سَفْحِ التَّلِّ يُفَتِّشونَ بَيْنَ الأعْشابِ ، وَعَلى مَبْعَدَةِ نِصْفِ كيلو مِتْرٍ فَقَطْ مِنّي .

وَزَحَفْتُ بِضْعَةَ أمْتارٍ وَاخْتَبَأْتُ خَلْفَ صَخْرَةٍ ، وَلاحَظْتُ وُجودَ شَقٍّ يَصِلُ إلى قِمَّةِ التَّلِّ ؛ فَزَحَفْتُ إلى ذلِكَ الشَّقِّ وَشَرَعْتُ أتَسَلَّقُ إلى أعْلى ، وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى القِمَّةِ ، رَفَعْتُ رَأسي ثانِيَةً ، فَرَأيْتُ أعْدائي يُفَتِّشونَ خِلالَ الأعْشابِ الطَّويلَةِ .

وَتَدَحْرَجْتُ مِنْ فَوْقِ القِمَّةِ إلى السَّفْحِ ، وَبالتّالي لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطاعَةِ أحَدٍ مِنْهُمْ أنْ يَراني . وَأخَذْتُ أعْدو لِمَسافَةٍ تَزيدُ عَلى نِصْفِ كيلو مِتْرٍ ، ثُمَّ صَعِدْتُ إلى القِمَّةِ مَرَّةً أخرى و وَقَفْتُ مُعْتَدِلاً ، فَرَآني الرِّجالُ وَتَحَرَّكوا نَحْوي ، فَجَرَيْتُ عائِدًا إلى مَكاني الأوَّلِ عَلى حينِ كانَ أعْدائي يَتَّجِهونَ صَوْبَ الاتِّجاهِ الخاطِئِ ، فَشَعَرْتُ بِالأمانِ .

وَكانَتْ أفضلُ خطَّةٍ لي أنْ أذهبَ إلى الشّمالِ ، فَاخْتَرْتُ طَريقي بِحِرْصٍ . وكانَ يَفْصِلُ بيني وَبَيْنَ أعْدائي وادٍ فَسيحٌ ، ولكِنْ عِنْدَما اكْتَشَفوا خطَأَهُمْ ، عادوا مُسْرِعينَ . وَفَجْأةً رَأيْتُهُمْ فَوْقَ قِمَّةِ التَّلِّ ، وبَدَأوا يُنادونَ عَلَيَّ . واكْتَشَفْتُ أنَّهُمْ لَيْسوا أعْدائي الحَقيقيّينَ ؛ إذْ كانَ اثْنانِ مِنْهُمْ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « رُبَّما يكونُ جُوبْلي قَدْ أبْلَغَ عَنّي ، وَهُمُ الآنَ يَبْحَثونَ عَنِ القاتِلِ . »

وَجَرى مِنْهُمْ رَجُلانِ يَهْبِطانِ التَّلَّ نَحْوي ، وَجَرى رِجالُ الشُّرْطَةِ الآخرونَ فَوْقَ القِمَّةِ بِاتِّجاهِ الشَّمالِ . وَشَعَرْتُ بِالخَوْفِ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ لأنَّ هؤُلاءِ الرِّجالَ يَعْرِفونَ المِنْطَقَةَ . صَحيحٌ أنَّ ساقَيَّ قَوِيَّتانِ، وَنَفَسي طَويلٌ ، غَيْرَ أنَّني لَمْ أكُنْ أعْرِفُ أفْضَلَ الطُّرُقِ هُنا .

وَتَرَكْتُ قِمَّةَ التَّلِّ وَانْدَفَعْتُ أجْري ناحِيَةَ نَهْرٍ . وَكانَ ثَمَّةَ طَريقٌ يَسيرُ بِمُحاذاةِ النَّهْرِ ، وَلاحَظْتُ بَوّابَةً عَلى جانِبِ الطَّريقِ ، فَقَفَزْتُ مِنْ فَوْقِها وَأخَذْتُ أجْري في مَمَرٍّ وَسْطَ حَقْلٍ . وَقادَني المَمَرُّ إلى مَجْموعَةٍ مِنَ الأشْجارِ ، حَيْثُ تَوَقَّفْتُ وَنَظَرْتُ خَلْفي . وَكانَ رِجالُ الشُّرْطَةِ عَلى بُعْدِ كيلو مِتْرٍ تَقْريبًا وَرائي .

وَاجْتَزْتُ حائطًا مُنْخَفِضًا وَراءَ الأشْجارِ ، فَوَجَدْتُ نَفْسي في فِناءِ

مَزْرَعَةٍ . وَكانَ مَنْزِلُ المَزْرَعَةِ عَلى بُعْدِ خَمْسينَ مِتْرًا ، وَبِجانِبِ المَنْزِلِ كانَ ثَمَّةَ مَبْنًى زُجاجِيٌّ بِداخِلِهِ رَجُلٌ عَجوزٌ يَجْلِسُ إلى مَكْتَبٍ ، وَأخَذَ يَتَطَلَّعُ إلَيَّ وَأنا مُتَّجِهٌ نَحْوَ المَبْنى .

كانَتِ الغُرْفَةُ زاخِرَةً بِالكُتُبِ وَالحَقائِبِ المَليئَةِ بِأدَواتٍ حَجَرِيَّةٍ قَديمَةٍ وَأوانٍ مُحَطَّمَةٍ . وَرَأيْتُ صَناديقَ عَديدَةً لِلعُمُلاتِ القَديمَةِ . وَكانَتِ الكُتُبُ وَالأوْراقُ تُغَطّي مَكْتَبَ الرَّجُلِ العَجوزِ .

وَكانَ يَبْدو عَطوفًا ، ذا وَجْهٍ مُسْتَديرٍ وَرَأسٍ أصْلَعَ ، وَكانَ يَضَعُ عَلى عَيْنَيْهِ نَظّارَةً كَبيرَةً . وَعِنْدَما دَخَلْتُ لَمْ يَتَحَرَّكْ أوْ يَتَكَلَّمْ ، وَلَمْ أسْتَطِعْ بِدَوْري أنْ أقولَ كَلِمَةً . وَنَظَرْتُ إلَيْهِ ، وَلاحَظْتُ عَيْنَيْهِ كانَتا صَغيرَتَيْنِ وَبَرّاقَتَيْنِ وَصافِيَتَيْنِ لِلْغايَةِ . أمّا رَأسُهُ الأصْلَعُ فَكانَ يَلْمَعُ مِثْلَ مِرْآةٍ .

وَعِنْدَئِذٍ قالَ بِبُطْءٍ : « أنْتَ في عَجَلَةٍ مِنْ أمْرِكَ ، يا صَديقي . »

أشَرْتُ إلى المَزْرَعَةِ وَإلى الحَقْلِ حَيْثُ كانَ بَعْضُ الأشْخاصِ يَتَسَلَّقونَ البَوّابَةَ المُقامَةَ عَلى الطَّريقِ .

قالَ : « آهٍ ! إنَّهُمْ رِجالُ الشُّرْطَةِ ، وَأنْتَ تَهْرُبُ مِنْهُمْ . حَسَنٌ ، بِإمْكانِنا أنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ ذلِكَ فيما بَعْدُ ؛ فَأنا لا أوَدُّ أنْ تَدْخُلَ

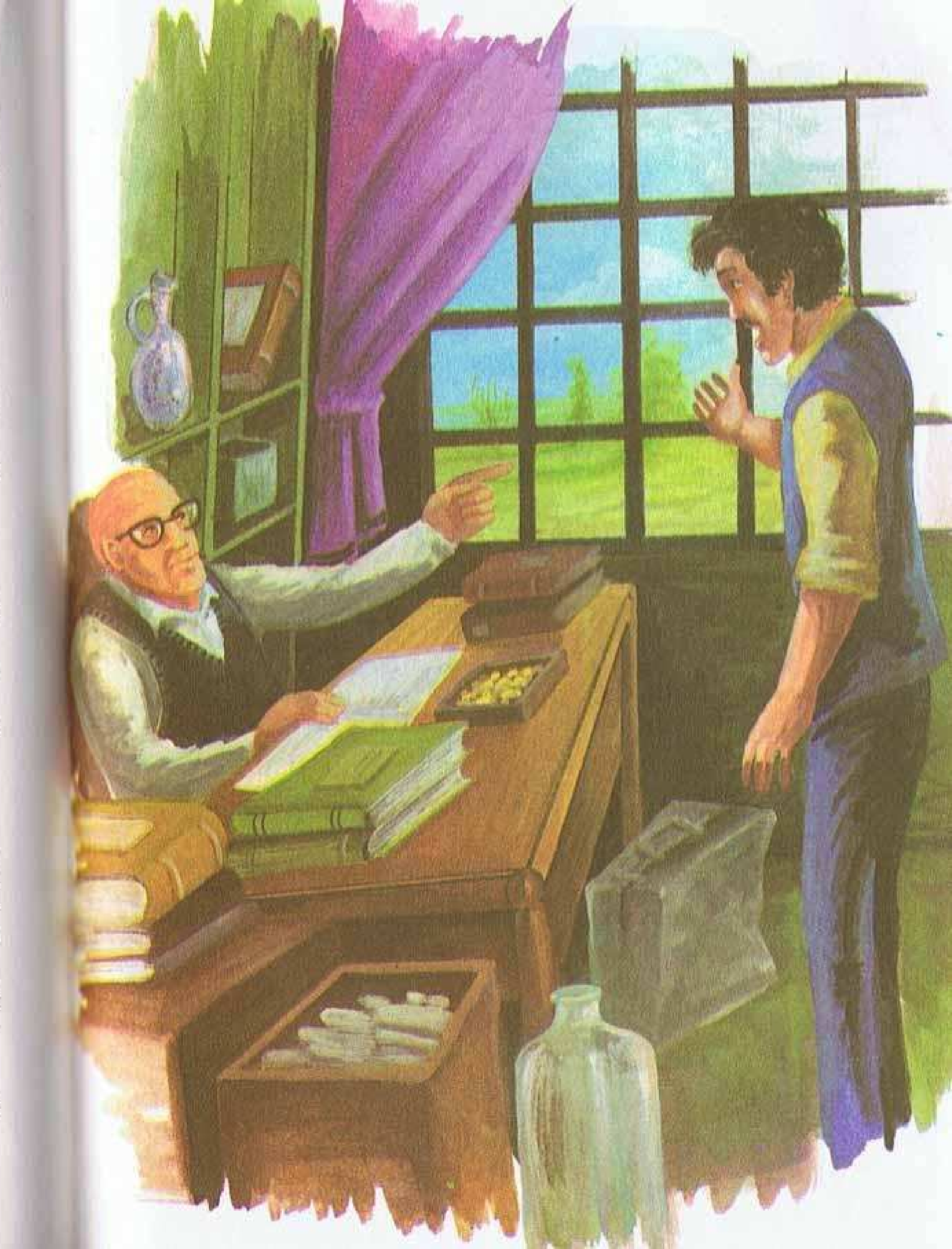
الشُّرْطَةُ إلى هُنا . لَوْ ذَهَبْتَ إلى الحُجْرَةِ ، فَسوفَ تَجِدُ بابَيْن . اُدْخُلْ مِنَ البابِ الأيْسَرِ ، وَأَغْلِقْهُ خَلْفَكَ . وَستَكونُ في أمانٍ هُناكَ .»

ثُمَّ الْتَقَطَ قَلَماً وَ واصَلَ عَمَلَهُ .

وَأَطَعْتُهُ على الفَوْرِ ، وَذَهَبْتُ إلى الحُجْرَةِ المُجاوِرَةِ ، وَدَخَلْتُ مِنَ البابِ الأيْسَرِ ، وَكانَ الظَّلامُ دامِساً بِالدّاخِلِ ، وَلا توجَدُ سِوى نافِذَةٍ واحِدَةٍ بِأَعْلى الحائِطِ .

وَكُنْتُ آمِناً مِنَ الشُّرْطَةِ في هَذِهِ الحُجْرَةِ ، لكِنَّني لَمْ أَكُنْ مُطْمَئِنّاً تَماماً . وَفي الحَقيقَةِ أَحْسَسْتُ بِالرّيبَةِ ؛ فَقَدْ جرى كُلُّ شَيْءٍ بِطَريقَةٍ سَهْلَةٍ حَتّى إنَّني بَدَأْتُ أَسْأَلُ نَفْسي : « لِماذا ساعَدَني هذا العَجوزُ ؟ إنَّني لَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلُ قَطُّ ، وَلَمْ يَسْأَلْني أَيَّةَ أَسْئِلَةٍ !»

وَبَيْنَما كُنْتُ أَنْتَظِرُ ، أَخَذْتُ أُفَكِّرُ في الطَّعامِ ثانِيَةً ، وَأُخَطِّطُ لإِفْطاري عَلى أَنْ يَكونَ شَريحَةَ لَحْمٍ وَبَيْضاً ، وَيالَهُ مِنْ تَخْطيطٍ مُثيرٍ! وَبالطَّبْعِ لَنْ يَرْفُضَ الرَّجُلُ العَجوزُ أَنْ يُقَدِّمَ لي ذَلِكَ ، فَقَدْ كانَ بِإمْكاني أَنْ آكُلَ نِصْفَ كيلو غرام مِنَ اللَّحْمِ وَعَشْرَ بَيْضاتٍ . وَبَيْنَما كُنْتُ أُفَكِّرُ في تِلْكَ الوَجْبَةِ فُتِحَ البابُ ، وَأَشارَ إِلَيَّ رَجُلٌ كانَ يَقِفُ بِالخارِجِ ، فَتَبِعْتُهُ إلى حُجْرَةِ الرَّجُلِ العَجوزِ .



سَأَلْتُه : « هَل انْصَرَفَ رِجالُ الشُّرْطَةِ ؟ »

أجابَني : « نعَمْ ، وَسَألوني عمّا إذا كُنْتَ قَدْ جِئْتَ إلى هُنا ، وَلكِنَّني لَمْ أُخْبِرْهُمْ بِشَيْءٍ ذي أَهَمِّيَّةٍ . إنَّهُ صَباحٌ مَيْمونُ الطّالعِ لكَ يا سَيِّدُ ريتْشارْد هَنّاي ! »

وَكانَ يَتَكَلَّمُ بِهُدوءٍ ، وَبَدا لي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَكَأَنَّهُ شابٌّ يافِعٌ . وَكُنْتُ أُراقِبُهُ طَوالَ الوَقْتِ ، فَقَدْ كانَ مُغْمِضاً عَيْنَيْهِ نِصْفَ إغْماضَةٍ ، مِثْلَ عَيْنَي الطّائِرِ .

وَفَجْأَةً تَذَكَّرْتُ ما قالَهُ لي اسْكَدر : « لَوْ رَأَيْتَ عَيْنَيْهِ يا هَنّاي ؛ فَلَنْ تَنْساهُما أَبَداً . »

أ يَكونُ ذلِكَ الرَّجُلُ عَدُوَّ اسْكَدر اللَّدودَ ؟ أ مَوْجودٌ أنا في بَيْتِ عَدُوّي ؟ سَأُقْدِمُ على قَتْلِهِ لَوْ صَحَّتْ ظُنوني .

وَسَبَرَ الرَّجُلُ دَخيلَتي وَابْتَسَمَ ، ثُمَّ تَحَرَّكَتْ عَيْناهُ ناحِيَةَ البابِ المَوْجودِ خَلْفي ، فَالْتَفَتُّ وَرَأَيْتُ رَجُلَيْنِ مُسَلَّحَيْنِ .

كانَ يَعْرِفُ اسْمي ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ رَآني مِنْ قَبْلُ . وَكانَتْ هَذِهِ هِيَ فُرْصَتي الوَحيدَةَ .

سَأَلْتُه : « ما الَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ؟ إنَّ اسْمي لَيْسَ ريتْشارْد هَنّاي .

إنَّ اسْمي اينسلي . »

قالَ مُبْتَسِماً : « أ هُوَ كَذلِكَ ؟ وَلكِنْ بِالطَّبْعِ لَكَ أَسْماءٌ أُخْرى . وَعلى كُلِّ حالٍ لَنْ نَخْتَلِفَ على الاسْمِ . »

وَفَكَّرْتُ سَريعاً في خُطَّةٍ أُخْرى . وَلَمْ يَكُنْ مِعْطَفي مَعي ، وَمَلابِسي كانَتْ لا تَزالُ مُتَّسِخَةً . وَكانَتْ فُرْصَتي لِلتَّنَكُّرِ لا تَزالُ قائِمَةً ، فَبَدَأْتُ أَقُصُّ عَلَيْهِ حِكايَةً اخْتَرَعْتُها .

سَأَلْتُه : « لِماذا أَنْقَذْتَني مِنْ أَيْدي رِجالِ الشُّرْطَةِ ؟ أنا لَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ في سَرِقَةِ النُّقودِ . لَقَدْ سَبَّبَتْ لي الكَثيرَ مِنَ المَتاعِبِ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَأْخُذَها . »

وَأَخْرَجْتُ أَرْبَعَةَ جُنَيْهاتٍ ذَهَبِيَّةٍ مِنْ جَيْبي ، وَأَلْقَيْتُها على مَكْتَبِ الرَّجُلِ العَجوزِ قائِلاً : « خُذِ النُّقودَ ، وَدَعْني أَنْصَرِفُ . »

قالَ : « لا ، يا سَيِّدُ هَنّاي ! لَنْ أَتْرُكَكَ تَنْصَرِفُ . إنَّكَ تَعْرِفُ الكَثيرَ مِمّا يَجْعَلُني لا أَسْمَحُ لَكَ بِذلِكَ . إنَّكَ تُتْقِنُ التَّمْثيلَ ، وَلكِنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ خِداعي . »

وَأَصابَتْني الحَيْرَةُ فيما إذا كانَ مُتَأَكِّداً مِنّي أَمْ لا ، وَلكِنَّني لَمَحْتُ لِلَحْظَةٍ خاطِفَةٍ ظِلّاً مِنَ الشَّكِّ في عَيْنَيْهِ .

قُلْتُ : « أنا لا أَوَدُّ خِداعَكَ ، فَلِماذا لا تُصَدِّقُني ؟ لَقَدْ سَرَقْتُ تِلْكَ النُّقودَ لأنَّني كُنْتُ جائِعاً . وَقَدْ تَرَكَ الرَّجُلانِ السَّيّارَةَ وَانْصَرَفا بَعْدَ وقوعِ الحادِثِ ، فَنَزَلْتُ إلى الضَّفَّةِ وَعَثَرْتُ عَلى النُّقودِ في أَرْضِيَّةِ السَّيّارَةِ . وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ وَالشُّرْطَةُ تُطارِدُني ، وَأنا مُتْعَبٌ جِدًّا .»

وَبَدا الشَّكُّ واضِحاً عَلى الرَّجُلِ العَجوزِ ، وَكانَ لا يَزالُ يَرْتابُ فِيَّ ، وَلكِنَّنا لَمْ نَتَقابَلْ مِنْ قَبْلُ قَطُّ ، وَهذا ما جَعَلَهُ حَريصاً .

قالَ : « اِحْكِ لي عَنْ مُغامَراتِكَ ، وَماذا حَدَثَ لَكَ أَمْسِ ؟»

قُلْتُ : « لا أَسْتَطيعُ ؛ فَأنا لَمْ آكُلْ مُنْذُ يَوْمَيْنِ . قَدِّمْ لي طَعاماً أَوَّلاً ؛ وَسَأَحْكي لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلَّ شَيْءٍ .»

وَأَشارَ إلى أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ ، فَأَحْضَرَ لي شَريحَةً مِنَ اللَّحْمِ البارِدِ ، وَكوباً مِنَ اللَّبَنِ . وَفَجْأَةً وَبَيْنَما أنا مُنْهَمِكٌ في تَناوُلِ الطَّعامِ تَحَدَّثَ إِلَيَّ الرَّجُلُ بِاللُّغَةِ الأَلْمانِيَّةِ ، وَكانَتْ خُدْعَةً بِالطَّبْعِ ؛ لِذا لَمْ أَهْتَمَّ أَوْ أَرُدَّ عَلَيْهِ .

وَعِنْدَما فَرَغْتُ مِنْ تَناوُلِ طَعامي ، بَدَأْتُ حِكايَتي ثانِيَةً ، فَقُلْتُ : « إِنَّني مِنْ ليث وَكُنْتُ في طَريقي لِزِيارَةِ أَخي في ويغتاون . وَلَمْ

أُسافِرْ بِالقِطارِ لِقِلَّةِ النُّقودِ مَعي . وَفي طَريقي رَأَيْتُ حادِثَةً ؛ فَقَدِ انْدَفَعَتْ سَيّارَةٌ مِنْ عَلى الطَّريقِ وَسَقَطَتْ في وادٍ صَغيرٍ .

« وَقَدْ قَفَزَ رَجُلٌ مِنَ السَّيّارَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ رَجُلٌ آخَرُ . وَتَحَدَّثا قَليلاً ثُمَّ انْصَرَفا مَعاً . وَاتَّجَهْتُ إلى السَّيّارَةِ ، وَكانَتْ مُحَطَّمَةً تَماماً ، وَ وَجَدْتُ أَرْبَعَةَ جُنَيْهاتٍ عَلى الأَرْضِ ، فَوَضَعْتُها في جَيْبي وَلُذْتُ بِالفِرارِ .

« وَتَوَجَّهْتُ إلى مَتْجَرٍ في أَقْرَبِ قَرْيَةٍ ، وَحاوَلْتُ شِراءَ شَيْءٍ مِنَ الطَّعامِ . وَعِنْدَما أَعْطَيْتُ صاحِبَةَ المَتْجَرِ جُنَيْهاً ذَهَبِيًّا ارْتابَتْ فِيَّ وَاسْتَدْعَتْ رَجُلَ الشُّرْطَةِ ؛ فَاسْتَطَعْتُ الهَرَبَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ مَزَّقَ مِعْطَفي تَماماً .»

وَصِحْتُ : « لا بَأْسَ . بِمَقْدورِهِمْ أَنْ يَسْتَرِدّوا النُّقودَ ؛ فَالفَقيرُ لا تُتاحُ لَهُ فُرْصَةٌ أَبَداً .

قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ : « هَذِهِ قِصَّةٌ جَيِّدَةٌ يا هَنّاي ، لكِنَّني لا أُصَدِّقُها !» ثُمَّ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ عَلى مَقْعَدِهِ وَبَدَأَ يَفْرُكُ أُذُنَهُ اليُمْنى .

صِحْتُ قائِلاً : « هَذِهِ هِيَ الحَقيقَةُ . إِنَّ اسْمي اينسلي ، وليس هَنّاي . وَحَتّى رِجالُ الشُّرْطَةِ هؤلاءِ عَرَفوني وَكانوا يُنادونَني بِاسْمي مِنْ فَوْقِ قِمَّةِ التَّلِّ .»

وَأخذْتُ أتطَلّعُ إلى عَيْنيهِ البَرّاقتَيْن وَصلَعتِهِ الّتي تواجِهُني .
وَكُنْتُ أعْلَمُ أنّ شُكوكَهُ تتزايَدُ ، فهُوَ لَمْ يَرَ وَجْهي على الإطْلاقِ ،
وَوَجْهي الآنَ مختَلِفٌ بِالطَّبْعِ عَنْ صُوَري ، وَكانَتْ مَلابِسي قَديمةً
جِدّا وَقَذِرَةً .

وَفي النّهايَةِ قالَ : « سَيَتعيّنُ عَلَيْكَ البَقاءُ هُنا ؛ فلَوْ أنّكَ لَسْتَ
ريتْشارْد هَنّاي ، فَسَوْفَ تَكونُ في أمانٍ . أمّا إذا كُنْتَ هَنّاي
فَسأقْتُلُكَ بِنَفْسي . وَسَوْفَ أكْتَشِفُ الحَقيقَةَ في الحالِ . » وَدَقّ
جَرَساً فَجاءَ رَجُلٌ آخَرُ .

قالَ لَهُ : « أحْضِرِ السَّيّارَةَ ، وَسَيَكونُ لَدَيْنا ثَلاثَةٌ على العَشاءِ . »

وَأخَذَ يَتَفَحَّصُني بِعِنايَةٍ شَديدَةٍ مَرّةً ثانِيَةً ، وَكانَ في عَيْنَيْهِ شَيْءٌ
مُرْعِبٌ تَماماً . كانَتْ عَيْناهُ جامِدَتَيْنِ وَقاسِيَتَيْنِ مِثْلَ عَيْنَي الأفْعى .

وَلَمْ أسْتَطِعْ أنْ أحوِّلَ بَصَري عَنْهُما ؛ فَقَدْ أصابَتاني بِالضَّعْفِ ،
مِثْلَ الطِّفْلِ ، وَشَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ في أنْ أزْحَفَ إلَيْهِ . لَقَدْ كانَ ألَدَّ أعْداءِ
اسْكُدَر ، وَمَعَ هذا ما كُنْتُ لأرْفُضَ لَهُ طَلَباً لَوْ سَألَنيهِ !

كانَ لا يَزالُ يَفْرُكُ أُذُنَهُ اليُمْنى ، ثُمَّ تَحَدَّثَ بِالألْمانِيَّةِ إلى أحَدِ
رِجالِهِ . وَعِنْدَما سَمِعْتُ كَلِماتِهِ ، زايَلَتْني أفْكاري الغَريبَةُ .

قالَ : « كارْل ، خُذْ هذا الشَّخْصَ إلى حُجْرَةِ المَخْزَنِ ، وَلا تَدَعْهُ
يَهْرُبُ . تَذَكَّرْ ذلِكَ . »

كانَتْ حُجْرَةُ المَخْزَنِ مُظْلِمَةً تَماماً . وَلَمْ يَدْخُلِ الرَّجُلانِ مَعي ،
بَلْ جَلَسا بِالخارِجِ ، حَيْثُ كُنْتُ أسْمَعُهُما . وَطُفْتُ بِمُحاذاةِ
جُدْرانِ الحُجْرَةِ فَتَحَسَّسْتُ عِدَّةَ صَناديقَ وَبَراميلَ ، ثُمَّ جَلَسْتُ فَوْقَ
أحَدِ الصَّناديقِ ، وَأخَذْتُ أفَكِّرُ في المَأزِقِ الَّذي أنا فيهِ .

سَوْفَ يَعودُ الرَّجُلُ العَجوزُ وَأعْوانُهُ وَيَتَعَرَّفونَ عَلَيَّ . وَسَيَتَذَكَّرونَ
عامِلَ الطُّرُقِ لأنَّني لا أزالُ أرْتَدي مَلابِسَ تيرْنْبُل . وَأسْتَطيعُ أنْ
أخَمِّنَ أسْئِلَتَهُمْ : لِماذا كانَ رِجالُ الشُّرْطَةِ يَبْحَثونَ عَنْ عامِلِ طُرُقٍ؟
لِماذا يَتَواجَدُ هذا العامِلُ بَعيداً عَنْ مَكانِ عَمَلِهِ بِثَلاثينَ كيلومِتْراً ؟
وَمِنَ المُمْكِنِ أنْ يَتَذَكَّروا مارْماديوك جوبْلي ، وَكَذلِكَ سير هاري .
وَأنا لا أسْتَطيعُ مُواصَلَةَ خِداعِ هؤلاءِ الأعْداءِ الغُرَباءِ ، وَقَدْ أبْقى
مَعَهُمْ وَحْدي هُنا ؛ فَفُرْصَتي في الهَرَبِ لَيْسَتْ مُواتِيَةً .

وَفَجْأةً تَمَلَّكَني غَضَبٌ شَديدٌ وَكَرِهْتُ هؤلاءِ الجَواسيسَ الألْمانَ
المَوْجودينَ في بِريطانْيا . إنَّني لَنْ أجْلِسَ هكَذا في مَكانٍ مُظْلِمٍ
لا أفْعَلُ شَيْئاً . يَجِبُ عَلَيَّ أنْ أهاجِمَهُمْ أوْ أحاوِلَ الهَرَبَ .

وَنَهَضْتُ وَمَشَيْتُ في أنْحاءِ الحُجْرَةِ مَرَّةً ثانِيَةً . وَكانَتِ الصَّناديقُ

وَالبَراميلُ مُقْفَلَةٌ بِإحْكامٍ لِدَرَجَةٍ يَصْعُبُ عَلَيَّ فَتْحُها ، وَلَكِنَّني وَصَلْتُ إلى دولابٍ في الحائِطِ ، وَكانَ مُغْلَقًا تَقْريبًا إذْ إنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ فَتْحَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ بِهِ شَقٌّ في بابِهِ ، فَدَفَعْتُ بِأُصْبُعي داخِلَ الشَّقِّ وَجَذَبْتُهُ بِقُوَّةٍ ، فَانْفَتَحَ بابُ الدولابِ .

كانَتْ بِداخِلِهِ أَشْياءُ غَريبَةٌ ، أَوَّلُها سِتَّةٌ مِنَ المَصابيحِ الكَهْرَبائِيَّةِ ، وَكانَتْ في حالَةٍ جَيِّدَةٍ ، فَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُضيءَ بِها المَكانَ حَوْلَ الدّولابِ .

وَكانَتْ بِداخِلِهِ أَيْضًا زُجاجاتٌ وَصَناديقُ صَغيرَةٌ ، وَبَعْضُ الأَكْياسِ الصَّفْراءِ المُتْرِبَةِ . وَعَثَرْتُ على صُنْدوقٍ بِهِ مُفَجِّراتٌ ذاتُ فَتائِلَ طَويلَةٍ ، فَأَخْرَجْتُها وَ وَضَعْتُها على الأَرْضِ بِحِرْصٍ . وَ وَجَدْتُ فى آخِرِ الدّولابِ صُنْدوقًا مَتينًا ، ظَنَنْتُ في البِدايَةِ أَنَّهُ مُغْلَقٌ ، وَلَكِنَّهُ انْفَتَحَ بِسُهولَةٍ ، وَكانَ مَليئًا بِأَصابِعِ الدّيناميتِ .

وَكانَ بِمَقْدوري أَنْ أُدَمِّرَ البَيْتَ بِهَذا الدّيناميتِ ، فَقَدِ اسْتَعْمَلْتُهُ في روديسيا كَثيرًا وَأَعْلَمُ مَدى قُوَّتِهِ ، وَلَكِنْ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يُدَمِّرَني كَذَلِكَ ! وَكانَتْ هَذِهِ هِيَ فُرْصَتي الوَحيدَةَ ؛ لِذا قَرَّرْتُ انْتِهازَها .

وَ وَجَدْتُ شَقًّا في الأَرْضِ قُرْبَ البابِ الخارِجِيِّ ، فَدَفَعْتُ بِأُصْبُعِ ديناميت في هذا الشَّقِّ ، وَ وَصَلْتُهُ بِمُفَجِّرٍ وَفَتيلٍ ، ثُمَّ حَرَّكْتُ أَحَدَ

الصَّناديقِ ، وَ وَضَعْتُهُ فَوْقَ الشَّقِّ .

وَجَلَسْتُ بِجِوارِ الدّولابِ وَأَشْعَلْتُ الفَتيلَ ، وَأَخَذْتُ أُراقِبُ النّارَ وَهِيَ تَسْري في الفَتيلِ . وَكانَ الرَّجُلانِ لا يَزالانِ يَتَكَلَّمانِ بِهُدوءٍ خارِجَ البابِ . وَفَجْأَةً وَقَعَ انْفِجارٌ رَهيبٌ ، وَانْدَفَعَتْ مِنَ الأَرْضِ حَرارَةٌ وَ وَهَجٌ فَظيعٌ . وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ لِعِدَّةِ ثَوانٍ ، أَعْقَبَتْهُ سُحُبٌ مِنَ التُّرابِ غَطَّتِ المَكانَ كُلَّهُ ، وَمَلأَ الحُجْرَةَ أَيْضًا دُخانٌ أَصْفَرُ كَثيفٌ جَعَلَني عاجِزًا في البِدايَةِ عَنْ رُؤْيَةِ أَيِّ شَيْءٍ . وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ مَلأَ الحُجْرَةَ الضَّوْءُ ؛ إذْ ظَهَرَتْ فُتْحَةٌ كَبيرَةٌ في الجِدارِ ، فَانْدَفَعْتُ ناحِيَتَها . وَكانَ الهَواءُ بِالخارِجِ مَليئًا أَيْضًا بِالدُّخانِ وَالتُّرابِ ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْمَعَ بَعْضَ الأَصْواتِ .

وَتَسَلَّلْتُ مِنَ الفُتْحَةِ ، وَانْدَفَعْتُ مُنْطَلِقًا ، وَأَلْفَيْتُ نَفْسي في فِناءِ المَزْرَعَةِ خَلْفَ البَيْتِ . وَعَلى بُعْدِ ثَلاثينَ مِتْرًا تَقْريبًا كانَ ثَمَّةَ بُرْجُ حَمامٍ مَبْنِيٌّ مِنَ الحَجَرِ ، لَيْسَتْ لَهُ أَبْوابٌ أَوْ نَوافِذُ ، وَإنَّما عِدَّةُ فُتْحاتٍ لِلطُّيورِ ، وَقِمَّتُهُ مُسَطَّحَةٌ .

وَفَكَّرْتُ لَوْ أَنَّني اسْتَطَعْتُ الوُصولَ إلى سَطْحِ البُرْجِ ، لَكُنْتُ في مَأْمَنٍ ، لأَنَّهُمْ لَنْ يَبْحَثوا عَنّي هُناكَ .

وَجَرَيْتُ وَسْطَ الدُّخانِ إلى خَلْفِ البُرْجِ ، وَبَدَأْتُ أَتَسَلَّقُهُ . وَكانَ

ذَلِكَ أمْراً صَعْباً ، لكِنَّني واصَلْتُ التَّسَلُّقَ بِبُطْءٍ شَديدٍ . وَفي النِّهايَةِ بَلَغْتُ قِمَّةَ البُرْجِ ، وَتَمَدَّدْتُ خَلْفَ السّورِ المُنْخَفِضِ لِسَطْحِ البُرْجِ .

لَقَدْ أصابَني الدُّخانُ وَالتُّرابُ بِالاِخْتِناقِ ، وَأحْسَسْتُ بِالتَّعَبِ الشَّديدِ، وَلكِنَّني كُنْتُ آمِناً هُناكَ . وَسُرْعانَ ما اسْتَغْرَقْتُ في النَّوْمِ .

وَعِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ كانَتْ شَمْسُ بَعْدَ الظُّهْرِ قَوِيَّةً جِدًّا . وَكانَ بِإمْكاني سَماعُ أصْواتِ الرِّجالِ وَصَوْتِ سَيّارَةٍ . وَرَفَعْتُ رَأسي قَليلاً وَأطْلَلْتُ مِنْ فَوْقِ السّورِ .

كانَ ثَمَّةَ أرْبَعَةُ رِجالٍ أوْ خَمْسَةٌ يَمْشونَ في فِناءِ المَزْرَعَةِ ناحِيَةَ المَنْزِلِ ، وَكانَ مَعَهُمُ الرَّجُلُ العَجوزُ ، وَقَدْ بَدا واضِحًا أنَّهُ حانِقٌ لِلْغايَةِ . وَأشارَ عَبْرَ الحُقولِ وَقالَ شَيْئًا بِالألْمانِيَّةِ إلى خَدَمِهِ . وَكانَ مِنْ بَيْنِهِمُ الرَّجُلانِ النَّحيفُ وَالبَدينُ .

وَبَقيتُ مُسْتَلْقِيًا فَوْقَ سَطْحِ بُرْجِ الحَمامِ طيلَةَ فَتْرَةِ ما بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَكُنْتُ ظَمْآنَ لِلْغايَةِ . وَكانَ ثَمَّةَ جَدْوَلُ ماءٍ صَغيرٌ بِجِوارِ المَزْرَعَةِ ، وَكُنْتُ أسْتَطيعُ سَماعَ خَريرِ الماءِ فيهِ . وَتَحَسَّسْتُ النُّقودَ في جَيْبي ، وَكُنْتُ مُسْتَعِدًّا لأنْ أدْفَعَ أرْبَعينَ جُنَيْهاً مُقابِلَ كوبٍ مِنَ الماءِ ، لَوْ سَنَحَتِ الفُرْصَةُ .



وَانْطَلَقَ رَجُلانِ بِالسَّيّارَةِ . وَبَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ انْطَلَقَ رَجُلٌ آخَرُ فَوْقَ حِصانٍ ناحِيَةَ الشَّرْقِ . وَبَدَأَ البَحْثُ عَنّي ، وَلكِنَّهُمْ جَميعاً اتَّجَهوا الاتِّجاهَ الخاطِئَ .

وَجَلَسْتُ فَوْقَ السَّطحِ وَتَطَلَّعْتُ حَوْلي . فَلَمْ أَرَ شَيْئاً – في البِدايَةِ – يُثيرُ الاهْتِمامَ ، وَلكِنَّني رَأَيْتُ أَشْجاراً في شَكْلِ دائِرَةٍ كَبيرَةٍ تَبْعُدُ عَنِ المَنْزِلِ كيلو مِتْراً ، وَكانَ بِداخِلِها مِساحَةٌ مُسَطَّحَةٌ خَضْراءُ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ ذَلِكَ مَطاراً . إِنَّهُ لَمَكانٌ رائِعٌ لِمَطارٍ سِرِّيٍّ ؛ إِذْ يُمْكِنُ أَنْ تَهْبِطَ فيهِ طائِرَةٌ صَغيرَةٌ دونَ أَنْ يَراها أَحَدٌ ؛ فَالمَكانُ مُخْتَفٍ تَماماً بِالنِّسْبَةِ لِمُسْتَوى الأَرْضِ . فَأَيُّ إِنْسانٍ سَوْفَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الطّائِرَةَ قَدْ حَلَّقَتْ فَوْقَ التَّلِّ ، وَلَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّها هَبَطَتْ بَيْنَ الأَشْجارِ . »

بَعْدَ ذَلِكَ لاحَظْتُ وُجودَ خَطٍّ أَزْرَقَ بَعيدٍ ناحِيَةَ الجَنوبِ ، وَكانَ البَحْرَ . وَهكَذا فَإِنَّ أَعْداءَنا كانَ لَدَيْهِمْ هَذا المَطارُ السِّرِّيُّ في اسْكُتْلَندا . وَكانَ بِإِمْكانِهِمْ مُراقَبَةُ سُفُنِنا كُلَّ يَوْمٍ . وَقَدْ أَحْنَقَتْني تِلْكَ الفِكْرَةُ تَماماً ، وَجَعَلَتْني عَصَبِيّاً أَيْضاً .

لَوْ أَنَّ الطّائِرَةَ عادَتْ ، فَسَوْفَ يَتَمَكَّنُ قائِدُها مِنْ رُؤْيَتي بِسُهولَةٍ ،

إلا أنَّهُ لَمْ يَكُنْ في وُسْعي أَنْ أَفْعَلَ شَيْئاً حَتّى حُلولِ الظَّلامِ . وَتَمَدَّدْتُ وَانْتَظَرْتُ فَوْقَ سَطْحِ بُرْجِ الحَمامِ . وَفي حَوالَى السّاعَةِ السّادِسَةِ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ خِلالِ الفَتْحَةِ المَوْجودَةِ في حُجْرَةِ المَخْزَنِ ، وَسارَ بِبُطْءٍ ناحِيَةَ بُرْجِ الحَمامِ . وَأَحْسَسْتُ – لِلَحْظَةٍ – بِرُعْبٍ شَديدٍ ، وَلكِنَّنا سَمِعْنا مَعاً صَوْتَ الطّائِرَةِ في الوَقْتِ نَفْسِهِ ، فَعادَ الرَّجُلُ أَدْراجَهُ سَريعاً إِلى حُجْرَةِ المَخْزَنِ .

وَلَمْ تُحَلِّقِ الطّائِرَةُ فَوْقَ البَيْتِ ، وَسَعِدْتُ لِذَلِكَ ، لكِنَّها حَوَّمَتْ حَوْلَ الأَشْجارِ ثُمَّ هَبَطَتْ . وَسَطَعَتْ بَعْضُ الأَضْواءِ لَحْظَةً ، وَبَعْدَ عَشْرِ دَقائِقَ سَمِعْتُ أَصْواتاً ، ثُمَّ سادَ الهُدوءُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَخَذَ الظَّلامُ يُخَيِّمُ عَلى المَكانِ .

انْتَظَرْتُ حَتّى التّاسِعَةِ تَقْريباً ، وَنَزَلْتُ مِنْ أَعْلى البُرْجِ وَبَلَغْتُ الأَرْضَ بِسَلامٍ ، وَزَحَفْتُ عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ بَعيداً عَنِ البُرْجِ . وَتَوَجَّهْتُ أَوَّلَ ما تَوَجَّهْتُ إِلى جَدْوَلِ المِياهِ ، فَانْبَطَحْتُ وَشَرِبْتُ مِنَ المِياهِ البارِدَةِ . بَعْدَها بَدَأْتُ أَجْري لأَبْتَعِدَ عَنْ ذَلِكَ المَنْزِلِ الرَّهيبِ بِقَدْرِ ما أَسْتَطيعُ .

الفصلُ السّابعُ

صيّادُ السّمكِ

الآنَ أصبحْتُ طليقاً ، ولكنَّني كُنْتُ أشعُرُ بالإعْياءِ بسببِ رائحةِ دُخانِ الديناميتِ الّتي كانَتْ تملأُ أنْفي . وبَعْدَ ساعةٍ كانَ عليَّ أنْ أستريحَ .

كانَتِ السّاعةُ الحاديَةَ عشْرَةَ تقْريباً عِنْدَما وَصلْتُ آمناً إلى الطَّريقِ . وأردْتُ أنْ أعودَ ثانيةً إلى بَيْتِ تيرنبُل ؛ فَقَدْ كانَ معْطَفي هُناكَ وَبِداخِلِ أحَدِ جُيوبِهِ مُفكَّرَةُ اسكدر ، وكانَ مِنَ الضَّروريِّ أنْ أحْصلَ عليْها . وكانَتْ خُطَّتي أنْ أعثُرَ على السّكّةِ الحَديديَّةِ ، وأسافرَ إلى الجنوبِ ، وبَعْدَ ذلكَ أذْهَبُ مُباشَرَةً إلى أرْتنزول لِمُقابَلَةِ سِير وُلْتر بُوليڤانْت .

كانَتْ لَيْلَةً جميلةً . وكُنْتُ أعرِفُ أنَ بَيْتَ تيرنبُل يَبْعُدُ حوالى

ثلاثينَ كيلو مِتْراً ، وَهِيَ مَسافةٌ طَويلةٌ لِكَيْ أقْطَعَها مرّةً واحِدَةً قبل طُلوعِ الشَّمْسِ ؛ لِذا فَقَدْ قرَّرتُ أنْ أخْتَبِئَ نهاراً وَأسافِرَ لَيْلاً فَقط .

وَعِنْدَما أشْرقَتِ الشَّمْسُ كُنْتُ بِجوارِ النَّهْرِ ، فاغْتَسلْتُ في المِياهِ البارِدَةِ ؛ لأنَّني جِدُّ متّسخ . وَتَمزَّقَ قَميصي وَبَنْطلوني ، وكُنْتُ أخْشى أنْ أقابِلَ أحَداً وأنا في هَذِهِ الحالَةِ . وبَعْدَ النَّهْرِ بِقَليلٍ كانَ ثَمَّةَ بيْتٌ صغيرٌ . ولَمّا كُنْتُ جائعاً جِدًّا ؛ فَقَدْ قرَّرتُ أنْ أتوَقَّفَ عِنْدَهُ .

وَكانَ صاحِبُ البَيْتِ غَيْرَ مَوْجودٍ . وَفي البِدايَةِ ارْتابَتْ زَوْجَتُهُ فِيَّ ؛ فالْتَقَطَتْ فَأساً وَأبْدَتِ اسْتِعْداداً تاما لِمُهاجَمَتي .

قُلْتُ لَها : « لَقَدْ سَقَطْتُ سَقْطَةً شَديدَةً مِنْ فَوْقِ التَّلِّ ، وَأشْعُرُ بأنَّني مَريضٌ ، فَهَلاّ ساعَدْتِني ؟»

وَلَمْ تُوَجِّهْ لي أيَّ سُؤالٍ ، وَلكِنَّها دَعَتْني لِلدُّخولِ إلى البَيْتِ . وَقَدَّمَتْ لي كوباً مِنَ اللَّبَنِ وَبَعْضَ الخُبْزِ وَالجُبْن ، ثُمَّ جَلَسْتُ بِجوارِ المِدْفَأةِ في مَطْبَخِها وَتَحدَّثْنا . وَقَدَّمْتُ لَها جُنَيْهاً ذَهَبِيًّا تَعْويضاً عَنْ تَعَبِها ، لكِنَّها رَفَضَتْهُ في البِدايَةِ .

قالَتْ : « إذا لَمْ تَكُنْ نُقودَكَ ، فَأنا لا أريدُها .»

ثارَ غَضَبي وَقُلْتُ : « لكِنَّها نُقودي . أ تَظُنّينَ أنَّني سَرَقْتُها ؟»

عِنْدَئِذٍ قَبِلَتْهُ ، ثُمَّ فَتَحَتْ دولاباً في الحائِطِ ، وَأخْرَجَتْ سُتْرَةً اسْكُتْلَنْدِيَّةً ثَقيلَةً وَأعْطَتْني إيّاها ، وَكَذَلِكَ إحْدى قُبَّعاتِ زَوْجِها . وَعِنْدَما غادَرْتُ البَيْتَ كُنْتُ أشْبَهَ بِرَجُلٍ اسْكُتْلَنْدِيٍّ تَماماً !

وَسِرْتُ ساعَتَيْنِ أوْ ثَلاثاً ، ثُمَّ تَبَدَّلَ الجَوُّ وَبَدَأتْ تُمْطِرُ . وَلكِنَّني بَقيتُ أشْعُرُ بِالدِّفْءِ وَلَمْ أبْتَلَّ بِفَضْلِ السُّتْرَةِ الاسْكُتْلَنْدِيَّةِ . وَبَعْدَ قَليل وَصَلْتُ إلى صَخْرَةٍ كَبيرَةٍ مُعَلَّقَةٍ فَوْقَ مِنْطَقَةٍ مُنْخَفِضَةٍ . وَكانَ العُشْبُ تَحْتَ الصَّخْرَةِ جافّاً ، فَاسْتَلْقَيْتُ عَلَيْهِ وَنِمْتُ طَوالَ النَّهارِ .

وَعِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ كانَ الظَّلامُ قَدْ حَلَّ تَقْريباً ، وَكانَ الجَوُّ لا يَزالُ مُمْطِراً وَبارِداً ، وَلَمْ أكُنْ مُتَأكِّداً مِنَ الطَّريقِ . وَقَدْ أخْطَأْتُهُ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أنَّني سِرْتُ مَسافَةَ ثَلاثينَ كيلومِتْراً ، غَيْرَ أنَّني في السّادِسَةِ صَباحاً وَصَلْتُ إلى بَيْتِ تيرنبُل .

وَفَتَحَ تيرنبُل البابَ بِنَفْسِهِ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّفْ عَلَيَّ ، وَسَألَني : « مَنْ أنْتَ ؟ لِماذا جِئْتَ إلى هُنا صَباحَ يَوْمِ الأحَدِ ؟ إنَّني أتَأهَّبُ لِلْخُروجِ .»

وَكُنْتُ قَدْ نَسيتُ أيّامَ الأسْبوعِ ؛ فَكُلُّ يَوْمٍ كانَ يُشْبِهُ الآخَرَ

بِالنِّسْبَةِ لي . وَشَعَرْتُ بِالإعْياءِ الشَّديدِ حَتّى إنَّني لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أجيبَهُ ، وَلكِنَّهُ تَعَرَّفَ عَلَيَّ بَعْدَ ذَلِكَ .

سَألَني : « هَلْ مَعَكَ نَظّارَتي ؟» فَأخْرَجْتُها مِنْ جَيْبي وَأعْطَيْتُهُ إيّاها .

قالَ : « إنَّكَ عُدْتَ بِالطَّبْعِ لِتَأخُذَ مِعْطَفَكَ . أُدْخُلْ يا رَجُلُ ، فَأنْتَ تَبْدو مَريضاً جِدًّا . انْتَظِرْ ، سَأحْضِرُ لَكَ مَقْعَداً .»

وَكَثيراً ما كُنْتُ أصابُ بِالمَلارْيا وَأنا في رودِيسْيا ، وَيَبْدو أنَّها لا تَزالُ عالِقَةً بِجِسْمي ، فَأنا أعْرِفُ أعْراضَها تَماماً ، وَقَدْ عاوَدَتْني بِسَبَبِ البَرْدِ وَالمَطَرِ . وَفي الحالِ خَلَعَ عَنّي تيرنبُل مَلابِسي وَقادَني إلى الفِراشِ .

وَبَقيتُ عِنْدَهُ عَشَرَةَ أيّامٍ قامَ خِلالَها بِرِعايَتي رِعايَةً تامَّةً . وَلازَمَتْني المَلارْيا سِتَّةَ أيّامٍ ، عادَتْ بَعْدَها الحَرارَةُ الطَّبيعِيَّةُ إلى جِسْمي وَشُفيتُ .

وَكانَ تيرنبُل يَذْهَبُ لِلْعَمَلِ صَباحاً وَيَعودُ مَساءً ، عَلى حينِ كُنْتُ أخْلُدُ أنا لِلرّاحَةِ طَوالَ اليَوْمِ . وَكانَتْ لَدَيْهِ بَقَرَةٌ تُدِرُّ لَنا اللَّبَنَ ، وَدائِماً ما كانَ يوجَدُ طَعامٌ بِالبَيْتِ .

وَذاتَ مَساءٍ قُلْتُ لَهُ : « ثَمَّةَ مَطارٌ صَغيرٌ عَلى بُعْدِ أَرْبَعةٍ وَعِشْرين كيلو مِتْرًا مِنْ هُنا . أ لَمْ يَسْبِقْ لَكَ أَنْ رَأَيْتَهُ ؟ وَتَهْبِطُ فيهِ أَحْيانًا طائِرَةٌ صَغيرَةٌ . هَلْ تَعلَمُ مَنْ هُوَ صاحِبُ هَذِهِ المِنْطَقَةِ ؟»

قالَ : « لا أَعْرِفُ ، وَقَدْ رَأَيتُ الطّائِرَةَ بِالطَّبْع ، وَلكِنَّني لا أَعْرِفُ شَيْئًا عَنها .»

وَكانَ يُحْضِرُ لي بَعْضَ الصُّحُفِ أَثْناءَ إِقامَتي مَعَهُ ، فَكُنْتُ أَقْرَأُها بِاهْتِمامٍ ، وَلكِنَّني لَمْ أَجِدْ فيها شَيْئًا بِخُصوصِ جَريمَةِ لَنْدَن .

وَلَمْ يَسْأَلْني تيرنبل أَيَّةَ أَسْئِلَةٍ ، وَلا حَتّى عَن اسْمي ، وَقَدْ أَدْهَشَني ذَلِكَ ، حَتّى إِنَّني سَأَلْتُهُ ذاتَ يَوْم : « هَلْ سَأَلَكَ أَحَدٌ عَنّي ؟»

أَجابَني : « ذاتَ يَومٍ تَوَقَّفَ رَجُلٌ يَرْكَبُ سَيّارَةً وَسَأَلَني عَنْ عامِلِ الطُّرُقِ الآخَرِ ، الَّذي هُوَ أَنْتَ بِالطَّبْع ، وَكانَ يَبْدو شَخْصًا غَريبًا حَتّى إِنَّني لَمْ أَقُلْ لَهُ أَيَّ شَيْءٍ .»

وَعِنْدَما غادَرْتُ البَيْتَ ، أَعْطَيْتُ تيرنبل خَمْسَةَ جُنَيْهاتٍ ذَهَبِيَّةٍ . وَلَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ في أَخْذِ النُّقودِ عَلى الإِطْلاقِ ، وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ وَغَضِبَ مِنّي لِدَرَجَةٍ شَديدَةٍ . وَلكِنَّهُ أَخَذَ النُّقودَ في النِّهايَةِ ، وَقالَ :

« أَنا لا أُريدُ نُقودًا ، فَعِنْدَما كُنْتُ أَنا مَريضًا ، ساعَدْتَني . وَالآنَ أَصْبَحْتَ أَنْتَ مَريضًا ، وَقَدْ ساعَدْتُكَ وَلا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ كُلَّ تِلْكَ النُّقودِ .»

وَكانَ الجَوُّ جَميلاً في ذَلِكَ الصَّباح ، وَلكِنَّني بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِعَصَبِيَّةٍ وَتَوَتُّرٍ . فَقَدْ كانَ اليَوْمُ هُوَ الثّاني عَشَرَ مِنْ يونْيَه (حَزيران) وَيَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أُنْهِيَ مُهِمَّةَ اسكدر قَبْلَ اليَوْمِ الخامِسَ عَشَرَ مِنْ يونْيَه . وَتَناوَلْتُ الغَداءَ بِفُنْدُقٍ هادِئٍ بِبَلْدَةِ موفّات ، ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إِلى مَحَطَّةِ السِّكَكِ الحَديدِيَّةِ . وَكانَتِ السّاعَةُ السّابِعَةَ مَساءً .

سَأَلْتُ : « ما ميعادُ القِطارِ المُتَّجِهِ إِلى لَنْدَن ؟»

أَجابَني مُوَظَّفُ السِّكَكِ الحَديدِيَّةِ : « الثّانِيَةَ عَشْرَةَ إِلّا عَشْرَ دَقائِقَ .»

وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَنْتَظِرَ وَقْتًا طَويلاً ؛ لِذا غادَرْتُ المَحَطَّةَ ، وَ وَجَدْتُ مَكانًا هادِئًا بِالقُرْبِ مِنْ قِمَّةِ تَلٍّ ، وَاسْتَلْقَيْتُ هُناكَ لأَنامَ . وَكُنْتُ مُجْهَدًا لِلْغايَةِ لِدَرَجَةِ أَنَّني نِمْتُ حَتّى الثّانِيَةَ عَشْرَةَ إِلّا عِشْرينَ دَقيقَةً ، فَجَرَيْتُ إِلى المَحَطَّةِ حَيْثُ كانَ القِطارُ مُنْتَظِرًا .

وَقَرَّرْتُ أَلّا أَذْهَبَ إِلى لَنْدَن ، فَنَزَلْتُ مِنَ القِطارِ في بَلْدَةِ كرو

حَيْثُ انْتَظَرْتُ مُدَّةَ ساعَتَيْن . وَأَخَذَني القِطارُ التّالي إلى بِرْمِنْغِهام ، وَ وَصَلْتُ إلى رِيدِنْغ في السّاعَةِ السّادِسَةِ مَساءً . وَأَمْضَيْتُ ساعَتَيْنِ في البَحْثِ عَنْ بَيْتِ السَّيِّدِ بوليڤانْت في أَرْتِنْزول .

وَكانَ نَهْرُ كِنِت يَجْري بِمُحاذاةِ الطَّريقِ ، وَكانَ الهَواءُ الإنْجليزِيُّ لَطيفاً وَدافِئاً ، وَيَخْتَلِفُ اخْتِلافاً تامّاً عَنْ هَواءِ اسْكُتْلَنْدا . وَ وَقَفْتُ قَليلاً فَوْقَ أَحَدِ الجُسورِ الَّتي تَعْبُرُ النَّهْرَ ، وَبَدَأْتُ أُغَنّي أُغْنِيَّةَ « آني لوري » بِصَوْتٍ خَفيضٍ .

وَمِنْ أَسْفَلِ جِسْرِ النَّهْرِ صَعِدَ صَيّادُ سَمَكٍ ، وَأَخَذَ يُغَنّي هُوَ أَيْضاً أُغْنِيَّةَ « آني لوري » وَهُوَ يَسيرُ ناحِيَتي .

وَكانَ الصَّيّادُ رَجُلاً ضَخْماً يَرْتَدي بَنْطَلوناً رَمادِيّاً قَديماً ، وَيَضَعُ عَلى رَأْسِهِ قُبَّعَةً كَبيرَةً . وَنَظَرَ إِلَيَّ وَابْتَسَمَ ، فَاسْتَشْفَفْتُ في وَجْهِهِ الحِكْمَةَ وَالأَمانَةَ . وَأَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَطَلَّعُ مَعي إلى الماءِ .

قالَ : « المِياهُ نَظيفَةٌ وَصافِيَةٌ . أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ نَهْرُ كِنِّت نَهْرٌ رائِعٌ . أُنْظُرْ إلى تِلْكَ السَّمَكَةِ الضَّخْمَةِ هُناكَ . لَكِنَّ الشَّمْسَ غَرَبَتِ الآنَ . لَوْ حاوَلْتَ طوالَ اللَّيْلِ أَنْ تَصِلَ إلَيْهِ فَلَنْ تَظْفَرَ بِهِ . »

سَأَلْتُهُ : « أَيْنَ ؟ فَأَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَراهُ . »

قالَ : « أُنْظُرْ هُناكَ إلى أَسْفَلُ ، عَلى بُعْدِ مِترٍ مِنْ تِلْكَ النَّباتاتِ المائِيَّةِ . »

قُلْتُ : « آهِ ، نَعَمْ . أَسْتَطيعُ أَنْ أَراهُ الآنَ . إِنَّهُ مِثْلُ حَجَرٍ أَسْوَدَ ضَخْمٍ ، أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

قالَ : « بَلى . » وَشَرَعَ يُرَدِّدُ بَعْضَ كَلِماتِ أُغْنِيَّةِ « آني لوري ».

وَكانَ لا يَزالُ يَنْظُرُ إلى الماءِ عِنْدَما سَأَلَني : « اسْمُكَ توسْدَن ، عَلى ما أَظُنُّ ؟ »

قُلْتُ : « لا . » ثُمَّ تَذَكَّرْتُ فَجْأَةً أَسْمائِيَ الأُخْرى فَأَكْمَلْتُ كَلامي بِسُرْعَةٍ قائِلاً : « آهِ ، نَعَمْ ، ذَلِكَ صَحيحٌ . » فَضَحِكَ وَقالَ : « الجاسوسُ الماهِرُ يَعْرِفُ اسْمَهُ . » وَكانَ بَعْضُ الرِّجالِ يَعْبُرونَ الجِسْرَ خَلْفَنا ، فَرَفَعَ سير وُلْتر صَوْتَهُ قائِلاً : « لا ، لَنْ أُعْطِيَكَ شَيْئاً . فَأَنْتَ قادِرٌ عَلى العَمَلِ . يُمْكِنُكَ أَنْ تَحْصُلَ عَلى بَعْضِ الطَّعامِ ، وَلَكِنّي لَنْ أُعْطِيَكَ بِنْساً واحِداً . »

وَمَرَّ الرِّجالُ ، وَابْتَعَدَ الصَّيّادُ عَنّي . وَأَشارَ إلى بَوّابَةٍ بَيْضاءَ عَلى بُعْدِ تِسْعينَ مِتْراً وَقالَ : « هذا هُوَ مَنْزِلي . انْتَظِرْ خَمْسَ دَقائِقَ ، ثُمَّ دُرْ حَوْلَ المَنْزِلِ لِتَدْخُلَ مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ . »

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى مَنْزِلِه ، كانَ البابُ الخَلْفِيُّ مَفْتوحاً ، وَكَبير خَدَم سير ولْتر في انْتِظاري لِيُرَحِّبَ بي .

قالَ : « تَفَضَّلْ مِنْ هُنا يا سَيِّدي . » وَصَعِدَ بِيَ السُّلَّمَ ، ثُمَّ أَخَذَني إلى إحْدى حُجُراتِ النَّوْم ، وَكانَ ثَمَّةَ طَقْمٌ كامِلٌ مِنَ المَلابِسِ عَلى الفِراشِ . وَلَفَتَتْ نَظَري بَذلَةٌ لِلسَّهْرَةِ وَقَميصٌ أَبْيَضُ نَظيفٌ . وَكانَ هُناكَ مَلابِسُ أُخرى أَيْضاً ، وَعَديدٌ مِنَ الأَحْذِيَةِ .

قالَ كَبيرُ الخَدَم : « آمُلُ أَنْ تُناسِبَكَ هَذِهِ الأَشْياءُ يا سَيِّدي . وَالحَمّامُ جاهِزٌ في الحُجْرَةِ المُجاوِرَةِ . وَسَأَدُقُّ جَرَسَ العَشاءِ في التّاسِعَةِ يا سَيِّدي . »

وَبَعْدَ أَنِ انْصَرَفَ جَلَسْتُ ، وَاعْتَقَدْتُ أَنّي أَحْلُمُ . فَبِالأَمْس وفي مِثْلِ هذا الوَقْتِ كُنْتُ نائِماً فَوْقَ قِمَّةِ تَلٍّ بِاسْكُتْلَنْدا . وَأنا الآنَ في هَذا المَنْزِلِ الرّائِعِ ، وَسِير وُلْتر لا يَعْرِفُ حَتّى اسْمي .

وَاسْتَحْمَمْتُ ، ثُمَّ ارْتَدَيْتُ القَميصَ الأَبْيَضَ وَزِيَّ السَّهْرَةِ . وَكانَتِ المَلابِسُ كُلُّها تُناسِبُني . وَدَقَّ جَرَسُ العَشاءِ ، فَنَزَلْتُ لِمُقابَلَةِ سير وُلْتر .

قُلْتُ لَه : « أَنْتَ عَطوفٌ جِداً يا سَيِّدي . وَيَجِبُ أَنْ أَقولَ لَكَ

الحَقيقَةَ . إِنَّني لَمْ أَرْتَكِبْ أَيَّ خَطَأً ، وَلَكِنَّ الشُّرْطَةَ تَبْحَثُ عَنّي في هَذِهِ اللَّحْظَةِ . »

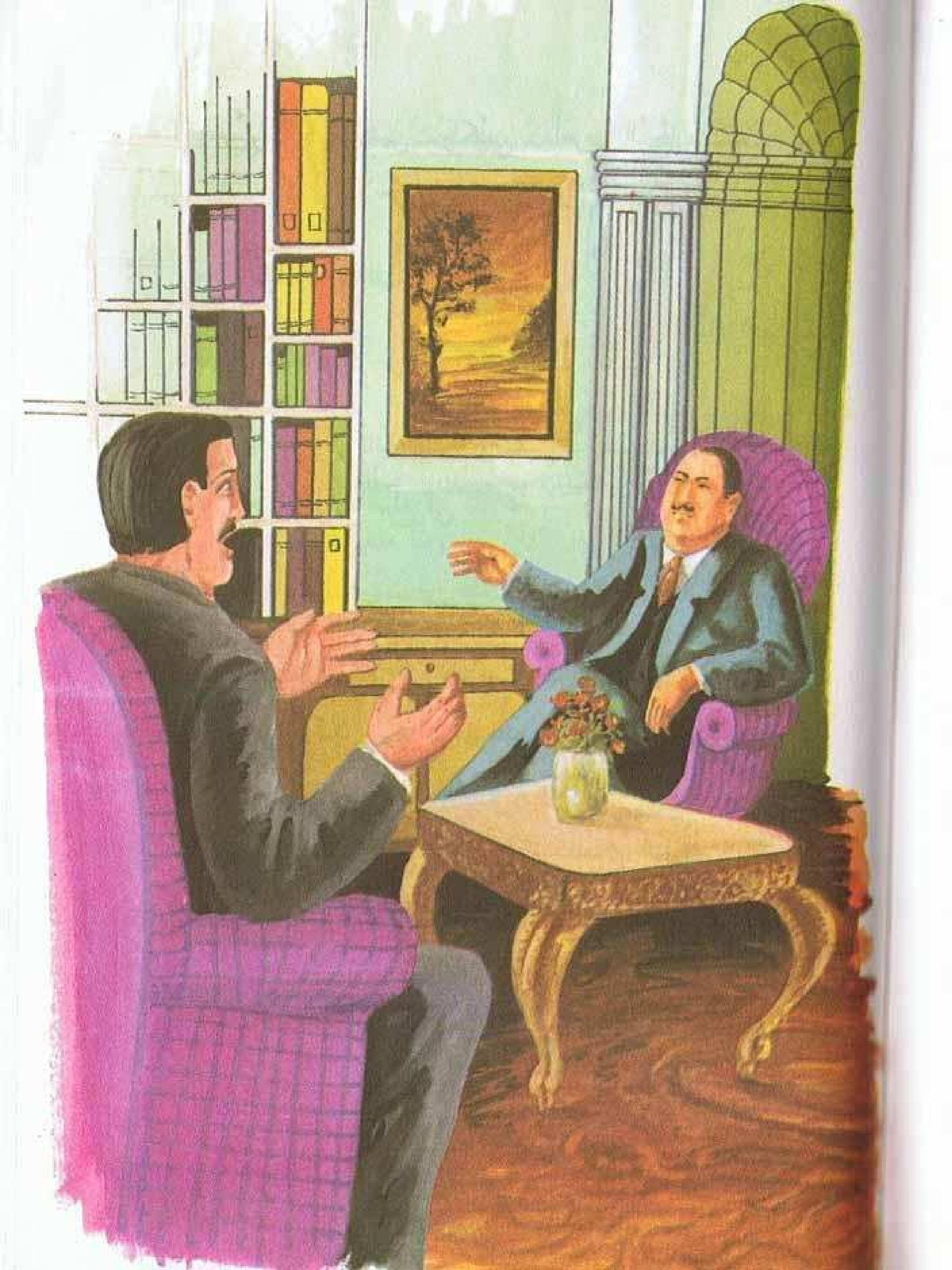
اِبْتَسَمَ وَقالَ : « لا بَأس . وَيُمْكِنُنا أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ هذا بَعْدَ العَشاءِ . وَأنا سَعيدٌ لأَنَّكَ وَصَلْتَ إلى هُنا سالِماً . »

وَاسْتَمْتَعْتُ بِالأَكْلِ مَعَ سير وُلْتر الَّذي كانَ ذا شَخْصِيَّةٍ مُمْتِعَةٍ ، وَقَدْ سافَرَ إلى العَديدِ مِنَ البِلادِ الأَجْنَبِيَّةِ . وَحَدَّثْتُه عَنْ رُوديسيا وَالسَّمَكِ في نَهْرِ زامْبيزي ، وَحَكى لي هُوَ أَيْضاً عَنْ بَعْضِ مُغامَراتِه .

وَتَوَجَّهْنا إلى مَكْتَبَتِه بَعْدَ العَشاءِ ، حَيْثُ أَحْضَرَ لَنا كَبيرُ الخَدَم القَهْوَةَ . وَكانَتْ حُجْرَةُ المَكْتَبَةِ لَطيفَةً جِدًّا ، وَمَليئَةً بِالكُتُبِ وَاللَّوْحاتِ الرّائِعَةِ المُعَلَّقَةِ عَلى الجُدْرانِ . وَقَرَّرتُ أَنْ أَشْتَرِيَ مَنزِلاً مِثْل هَذا المَنْزِلِ عِنْدَما أَنْتَهي مِنْ مُهِمَّةِ اسْكَدر .

وَمالَ سير وُلْتر إلى الوَراءِ في مَقْعَدِه ، وَقالَ : « لَقَدْ أَطَعْتُ أَوامِرَ هاري . وَالآنَ أَنا عَلى اسْتِعْدادٍ لأَنْ أُصْغِيَ إِلَيْكَ يا سَيِّدُ هَنّاي . إِنَّ لَدَيْكَ بَعْضَ المَعْلوماتِ ، عَلى ما أَعْتَقِدُ . »

دَهِشْتُ لِسَماع اسْمِيَ الحَقيقِيِّ ، وَلَكِنَّني بَدَأتُ حِكايَتي ، وَأَخْبَرْتُه بِكُلِّ شَيْءٍ . وَ وَصَفْتُ لَهُ لِقائي مَعَ اسْكَدر وَمَخاوِفَهُ عَلى



كارُوليدِس . وَأخْبَرْتُهُ بِجَريمَةِ القَتْلِ وَمُغامَرَتي مَعَ بائِع اللَّبنِ .

سَألَني : « أيْنَ ذَهَبْتَ بَعْدَ ذلِكَ ؟ »

أجَبْتُهُ : « ذَهَبْتُ إلى غالواي . وَسَرْعانَ ما اكْتَشَفْتُ سِرَّ شَفْرَةِ اسْكَدر ، وَبِذَلِكَ اسْتَطَعْتُ أنْ أقْرَأ مُفَكِّرَتَهُ . »

سَألَني : « ألا تَزالُ مَعَكَ ؟ »

أجَبْتُ « بَلى . »

ثُمَّ وَصَفْتُ لَهُ لِقائي مَعَ سِير هاري ، وَكَيْفَ ساعَدْتُهُ في براتِلْبيرن . وَضَحِكَ سِير وُلْتر قائِلاً : « هاري لا يَسْتَطيعُ إلْقاءَ خُطْبَةٍ . إنَّهُ إنْسانٌ طَيِّبٌ جِدًّا ، وَلكِنَّ أفْكارَهُ خاطِئَةٌ . هَيَّا واصِلْ حِكايَتَكَ يا سَيِّدُ هَنّاي . »

حَكَيْتُ لَهُ عَنْ تيرنْبُل وَقِيامي بِوَظيفَةِ عامِلِ طُرُقٍ ، فَسُرَّ كَثيراً بِتِلْكَ الحِكايَةِ .

سَألَني : « هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تَصِفَ لي أولئِكَ الرِّجالَ الَّذينَ كانوا في السَّيّارَةِ ؟ »

أجَبْتُهُ : « أحَدُهُمْ نَحيفٌ أسْوَدُ الشَّعْرِ ، وَلَقَدْ رَأيْتُهُ مِنْ قَبْلُ في

الفُنْدُقِ مَعَ الشَّخْصِ البَدينِ . وَلَكِنَّني لا أعْرِفُ الرَّجُلَ الثّالِثَ ، وَهُوَ أكْبَرُ سِنا مِنْ الاثْنَيْنِ الآخَرَيْنِ .»

« ماذا حَدَثَ بَعْدَ ذلِكَ ؟»

« قابَلْتُ مارْمادْيوك جوبْلي ، وَتَمازَحْتُ مَعَهُ .»

وَضَحِكَ سِير وُلْتر ثانِيَةً عِنْدَما وَصَفْتُ لَهُ هذا الجُزْءَ مِنَ الحِكايَةِ الَّذي دارَ مَعَ الرَّجُلِ الأصْلَعِ في المَزْرَعَةِ .

سَأَلَني : « كَيْفَ هَرَبْتَ مِنْ ذَلِكَ المَكانِ ؟»

أجَبْتُهُ : « لَقَدْ عَثَرْتُ عَلى ديناميت وَفَتائِلِ إشْعالٍ في الدّولابِ ، فَقُمْتُ بِتَفْجيرِ المَكانِ تَقْريباً . وَيوجَدُ هُناكَ مَطارٌ صَغيرٌ تَهْبِطُ فيهِ الطّائِرَةُ . وَأُصِبْتُ بَعْدَ ذلِكَ بِالمَلارْيا ، وَلَعَلَّ حالَتي كانَتْ سَتَزْدادُ سوءاً ما لَمْ يَكُنْ مَعي.ذَلِكَ المِعْطَفُ الاسْكُتْلَنْديُّ الثَّقيلُ . وَلَقَدْ قامَ تيرنْبُل بِرِعايَتي جَيِّداً ، ثُمَّ سافَرْتُ إلى الجَنوبِ بِالقِطارِ ، وَهأنَذا الآنَ هُنا .»

نَهَضَ سِير وُلْتر بِبُطْءٍ ، وَنَظَرَ إلَيَّ قائِلاً : « لا داعِيَ لأنْ تَخْشى رِجالَ الشُّرْطَةِ يا هَنّاي ؛ فَهُمْ لا يَبْحَثونَ عَنْكَ الآنَ .»

وَدَهِشْتُ لِسَماعِ ذَلِكَ ، وَصِحْتُ : « لِماذا ؟ هَلْ عَثَروا عَلى القاتِلِ ؟»

قالَ : « كَلا ، لَيْسَ بَعْدُ ؛ غَيْرَ أنَّ رِجالَ الشُّرْطَةِ يَعْلَمونَ أنَّكَ لَمْ تَقْتُلِ اسْكَدر .»

« كَيْفَ تَسَنّى لَهُمْ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ ؟»

« لأنَّني تَلَقَّيْتُ خِطاباً مِن اسْكَدر ؛ فَقَدْ أدّى لي عِدَّةَ مَهامَّ ، وَأنا أعْرِفُهُ جَيِّداً . وَقَدْ كانَ جاسوساً ماهِراً لا يَعيبُهُ سِوى شَيْءٍ واحِدٍ .»

« ما هُوَ ؟»

« أنَّهُ كانَ يَرْغَبُ دائِماً في العَمَلِ وَحْدَهُ ، وَلَقَدْ فَشِلَ لِهَذا السَّبَبِ . إنَّ الجَواسيسَ المُحَنَّكينَ يَتَعاوَنونَ دائِماً مَعَ الجَواسيسِ الآخَرينَ . وَلَكِنَّ اسْكَدر لَمْ يَكُنْ يَسْتَطيعُ أنْ يَفْعَلَ هَذا . وَقَدْ أسِفْتُ غايَةَ الأسَفِ مِنْ أجْلِهِ ؛ لأنَّهُ كانَ إنْساناً طَيِّباً وَرَجُلاً شُجاعاً لِلْغايَةِ . وَ وَصَلَني مِنْهُ خِطابٌ يَوْمَ ٣١ مايو .»

« لَكِنَّهُ كانَ مَيِّتاً في ذَلِكَ الوَقْتِ ؛ لأنَّهُ قُتِلَ يَوْمَ ٢٣ مايو ، ألَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

« بَلى ، وَقَدْ كَتَبَ الخِطابَ يَوْمَ ٢٣ مايو . وَكانَ دائِماً يُحاوِلُ خِداعَ أَعْدائِهِ ؛ لِذا فَقَدْ أَرْسَلَ الخِطابَ إِلى إِسْبانْيا أَوّلا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ عادَ الخِطابُ إِلى إِنْجِلْترا . »

« ماذا كَتَبَ في خِطابِهِ ؟ »

« أَخْبَرَني أَنَّ بَرِيطانْيا في خَطَرٍ بالِغ . وَقالَ أَيْضاً إِنَّهُ يُقيمُ مَعَ صَديقٍ طَيِّبٍ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ هذا الصَّديقَ الطَّيِّب ، هُوَ أَنْتَ يا هَنّايْ . وَ وَعَدَ بِالكِتابَةِ مَرَّةً أُخْرى . »

« ماذا فَعَلْتَ إِذاً ؟ »

« تَوَجَّهْتُ إِلى الشُّرْطَةِ مُباشَرَةً ، وَهُناكَ اكْتَشَفوا اسْمَكَ فَأَرْسَلْنا بَرْقِيَّةً إِلى رُودِيسْيا . وَكانَ الرَّدُّ في صالِحِكَ ؛ لِذا لَمْ يُراوِدْنا الشَّكُّ فيكَ . وَخَمَّنْتُ السَّبَبَ في مُغادَرَتِكَ لَنْدَن ، فَقَدْ كُنْتَ تُريدُ مُواصَلَةَ مُهِمَّةِ اسْكَدر ؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ بَعْدَ ذَلِكَ تَلَقَّيْتُ خِطابَ هاري ، فَخَمَّنْتُ أَنَّ تُوسْدَن هُوَ رِيتْشارْد هَنّاي . »

كُنْتُ سَعيداً جِدًّا لِسَماعِ هَذا الخَبَرِ ، فَقَدْ كانَ أَعْداءُ وَطَني هُمْ أَعْدائي ، أَمّا رِجالُ الشُّرْطَةِ فَهُمُ الآنَ أَصْدِقائي .. وَعادَتْ إِلَيَّ حُرِّيَّتي .

وَجَلَسَ صَيّادُ السَّمَكِ وَابْتَسَمَ لي ، وَقالَ : « أَرِني مُفَكِّرَةَ اسْكَدر . »

وَأَخْرَجْتُ المُفَكِّرَةَ الصَّغيرَةَ ، وَأَخَذْتُ أَشْرَحُ لَهُ الشَّفْرَةَ . وَكانَ لَمّاحاً جِدًّا فَعَرَفَ ما تَعْنيهِ الأَسْماءُ ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ لِمُدَّةِ ساعَةٍ أَوْ أَكْثَر .

قالَ : « لَقَدْ كانَ اسْكَدر مُصيباً في شَيْءٍ واحِدٍ ؛ فَسَوْفَ يَأْتي إِلى لَنْدَن ضابِطٌ فَرَنْسِيٌّ في الخامِسَ عَشَرَ مِنْ يونْيَه ، وَيُوافِقُ ذَلِكَ بَعْدَ غَدٍ . وَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ سِرِّيٌّ ، وَبِالطَّبْعِ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هُناكَ بَعْضَ الجَواسيسِ الأَلْمانِ في إِنْجِلْترا . كَما أَنَّ لَنا بَعْضَ الأَعْوانِ كَذَلِكَ في أَلْمانْيا . وَلَكِنْ كَيْفَ تَوَصَّلوا جَميعاً إِلى مَعْرِفَةِ سِرِّ زِيارَةِ هَذا الضّابِطِ الفَرَنْسِيِّ ؟ أَمّا حِكايَةُ اسْكَدر عَنِ الحَرْبِ وبلاكْ سْتُون فَأَنا لا أُصَدِّقُها . فَقَدْ كانَتْ تَنْتابُ اسْكَدر بَعْضُ الأَفْكارِ الغَريبَةِ . »

وَ وَقَفَ سير وُلْتر ، وَأَخَذَ يَتَجَوَّلُ في أَرْجاءِ الغُرْفَةِ جيئَةً وَذَهاباً وَهُوَ يُرَدِّدُ : « بلاكْ سْتُون ! إِنَّها نَوْعٌ مِنَ الحِكاياتِ الرَّخيصَةِ ، كَما أَنَّني لا أُصَدِّقُ الجُزْءَ الخاصَّ بِكارُوليدِس . فَأَنا أَعْلَمُ أَنَّهُ رَجُلٌ مُهِمٌّ . وَلَكِنْ لا يَبْغي أَحَدٌ أَنْ يَقْتُلَهُ . وَقَدْ يَكونُ ثَمَّةَ خَطَرٌ عَلِمَ بِهِ اسْكَدر ،

إلا أنَّ الأمْرَ لَيسَ على هَذا القَدْرِ مِنَ الأهَمِّيَّةِ . إنَّها المَهامُّ العاديَّةُ لِلْجاسوسِ الَّتي يَسْتَمْتِعُ بِها الألْمانُ كَثيراً ؛ فَأحْيانًا يَقْتُلونَ رَجُلاً ، كَما قَتَلوا اسْكَدر . وَالحُكومَةُ الألْمانِيَّةُ تَدْفَعُ لَهُمْ نَظيرَ ذلِكَ .»

وَدَخَلَ كَبيرُ الخَدَمِ الحُجْرَةَ ، وَقالَ : « مُكالَمَةٌ تليفونيَّةٌ لَكَ ، يا سَيِّدي ؛ إنَّهُ مَكْتَبُكَ في لَنْدَن ، فَالسَّيِّدُ هيث يَرْغَبُ في التَّحَدُّثِ إلَيْكَ يا سَيِّدي .»

وَغادَرَ سير وُلْتر المَكْتَبَةَ ، وَعادَ بَعْدَ عِدَّةِ دَقائِقَ شاحِبَ الوَجْهِ لِلْغايَةِ .

قالَ : « كانَ اسْكَدر مُصيبًا ، وَكُنْتُ مُخْطِئًا ، فَقَدْ ماتَ كارُوليدِس ؛ أُطْلِقَ عَلَيْهِ الرَّصاصُ مُنْذُ ثَلاثِ ساعاتٍ .»

الفَصْلُ الثّامِنُ

عِصابَةُ بلاك ستون

في الصَّباحِ أخَذَ كَبيرُ الخَدَمِ زِيَّ السَّهْرَةِ ، وَأحْضَرَ بَعْضَ المَلابِسِ الأخْرى . وَنَزَلْتُ لِتَناوُلِ الإفْطارِ ، فَوَجَدْتُ سير وُلْتر جالِسًا إلى المائِدَةِ ، وَبِيَدِهِ بَرْقِيَّةٌ .

قالَ : « كُنْتُ مَشْغولاً طَوالَ اللَّيْلِ ، فَقَدِ اتَّصَلْتُ بِوَزيرِ الخارِجِيَّةِ وَ وَزيرِ الحَرْبِيَّةِ ، فَاتَّصَلا تليفونيًّا بِقائِدِ البَحْرِيَّةِ . وَسَيُحْضِرونَ الضّابِطَ الفَرَنْسِيَّ اليَوْمَ بَدَلاً مِنَ الغَدِ . إنَّ اسْمَهُ « رُويه » ، وَسَيَكونُ هُنا في الخامِسَةِ مَساءَ اليَوْمِ . وَهذِهِ البَرْقِيَّةُ مِنْ قائِدِ البَحْرِيَّةِ .»

وَأشارَ إلى الطَّعامِ السّاخِنِ المَوْجودِ عَلى المائِدَةِ ، فَبَدَأْتُ تَناوُلَ الإفْطارِ . وَكانَ إفْطاراً جِدَّ شَهِيٍّ .

وَ واصَلَ حَديثَهُ قائلاً : « إنَّني لا أعْتَقِدُ أنَّ هذا التَّغْيِيرَ سَوْفَ يُساعِدُنا ، فَقَدْ تَوصَّلَ أعْداؤُنا لِمَعْرِفَةِ التّاريخِ الأوَّلِ ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أنْ يَتَوَصَّلوا إلى مَعْرِفَةِ التّاريخِ الجَديدِ أيْضاً . لا بُدَّ أنَّ ثَمَّةَ جاسوساً ألْمانِياً في وِزارَةِ الخارِجيَّةِ أوْ وِزارَةِ الحَرْبِيَّةِ . وَخَمْسَةُ أشْخاصٍ فَقَطْ هُمُ الَّذينَ يَعْلَمونَ بِحُضورِ رُوِيه ، وَكُنّا نَعْتَقِدُ ذلِكَ ، غَيْرَ أنَّ شَخْصاً ما أخْبَرَ اسْكَدر وَالألْمانَ .»

سَألْتُهُ : « أ لا يُمْكِنُكُمْ تَغْييرُ خُطَطِكُمُ الحَرْبِيَّةِ ؟»

أجابَ : « يُمْكِنُنا ، وَلكِنَّنا لا نُريدُ . فَقَدْ فَكَّرْنا كَثيراً في تِلْكَ الخُطَطِ ، وَهِيَ أفْضَلُ ما أمْكَنَ الوُصولُ إلَيْهِ .»

قُلْتُ : « لكِنْ إذا كانَ هُناكَ ضَرورَةٌ ، فَسَتُغَيِّرونَها .»

قالَ : « رُبَّما . إنَّها مُشْكِلَةٌ صَعْبَةٌ ، يا هَنّاي ؛ لأنَّ أعْداءَنا لَيْسوا أطْفالاً . إنَّهُمْ لَنْ يَسْرِقوا أيَّةَ وَرَقَةٍ مِنْ رُوِيه ، فَهُمْ يُريدونَ مَعْرِفَةَ خُطَطِنا ، وَلكِنْ سِرًّا . وَعِنْدَئِذٍ يَعودُ رُوِيه إلى فَرَنْسا وَيَقولُ : « ها هِيَ ذي خُطَطُ بريطانْيا لِلْحَرْبِ ، وَهِيَ في غايَةِ السِّرِّيَّةِ ، وَالألْمانُ لا يَعْرِفونَ عَنْها شَيْئاً .»

قُلْتُ : « يَنْبَغي إذاً تَعْيينُ حارِسٍ خاصٍّ لِلرَّجُلِ الفَرَنْسِيِّ ، يُرافِقُهُ طَوالَ الوَقْتِ .»

قالَ : « سَيَتَناوَلُ رُوِيه العَشاءَ مَعَ وَزيرِ الخارِجيَّةِ اللَّيْلَةَ ، ثُمَّ يَأتي إلى مَنْزِلي لِمُقابَلَةِ أرْبَعَةِ أشْخاصٍ ، هُمْ سير آرْثَر درو ، وَاللِّواءُ وِنسْتانْلي ، وَالسَّيِّدُ وِيتاكَر ، وَأنا . وَنَظَراً لأنَّ قائِدَ البَحْرِيَّةِ مُتَوَعِّكٌ قَليلاً مُنْذُ عِدَّةِ أيّامٍ ، لِذا فَإنَّ السَّيِّدَ وِيتاكَر سَيَحْضُرُ بَدَلاً مِنْهُ ، وَمَعَهُ الخُطَطُ الَّتي سَيَتَسَلَّمُها مِنْ مَكْتَبِ قائِدِ البَحْرِيَّةِ ، وَسَنَقومُ نَحْنُ بِتَسْليمِها لِرُوِيه الَّذي سَيُسافِرُ إلى بُورْتسْماوْث ، حَيْثُ تَنْتَظِرُهُ سَفينَةٌ حَرْبِيَّةٌ سَتُبْحِرُ بِهِ إلى فَرَنْسا . وَسَيَكونُ بِصُحْبَتِهِ حارِسٌ خاصٌّ طَوالَ الوَقْتِ .»

وَبَعْدَ الإفْطارِ سافَرْنا إلى لَنْدَن بِالسَّيّارَةِ .

وَقالَ لي سير وُلْتر : « إنَّني ذاهِبٌ بِكَ إلى شُرْطَةِ اسْكُتْلَنْد يارْد ، يا هَنّاي ؛ لأنّي أُريدُكَ أنْ تُقابِلَ مَأمورَ الشُّرْطَةِ .»

وَكانَتِ السّاعَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ وَالنِّصْفَ عِنْدَما وَصَلْنا إلى مَقَرِّ شُرْطَةِ اسْكُتْلَنْد يارْد . وَسِرْنا داخِلَ المَبْنى الضَّخْمِ المُعْتِمِ ، وَقابَلْتُ المَأمورَ ، وَكانَ اسْمُهُ ماك غليڤراي .

قالَ سير وُلْتر : « لَقَدْ أتَيْتُ لَكَ بِالقاتِلِ .»

اِبْتَسَمَ المَأمورُ وَقالَ : « يُسْعِدُني أكْثَرَ لَوْ كُنْتَ أتَيْتَ لي بِالقاتِلِ

الحَقيقيِّ ، يا بوليڤانت . صَباحُ الخَيْرِ ، يا سَيِّدُ هَنّاي ، لا شَكَّ أنَّكَ تُثيرُ الاهْتِمامَ لِلْغايَةِ . »

قالَ سير وُلْتر : « سَوْفَ يَحْكي لَكَ عَنْ أشْياءَ مُثيرَةٍ ، وَلكِنْ لَيْسَ اليَوْمَ . وَيُؤْسِفُني أنْ تُضْطَرَّ إلى الانْتِظارِ مُدَّةَ أرْبَعٍ وَعِشْرينَ ساعَةً . إنَّ السَّيِّدَ هَنّاي حُرٌّ الآنَ ، أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟ »

أجابَ المأمورُ : « بَلى بِالطَّبْعِ . » ثُمَّ الْتَفَتَ إليَّ قائِلاً : « أَ تَوَدُّ أنْ تَعودَ إلى شَقَّتِكَ القَديمَةِ ؟ إنَّها جاهِزَةٌ إذا أرَدْتَ ، وَلكِنْ لَعَلَّكَ تَوَدُّ الانْتِقالَ إلى غَيْرِها . »

كُنْتُ أُفَكِّرُ في اسْكُدر فَلَمْ أَسْتَطِعِ الإجابَةَ .

قالَ سير وُلْتر : « يَجِبُ أنْ أَنْصَرِفَ الآنَ . وَرُبَّما نَكونُ في حاجَةٍ إلى بَعْضِ رِجالِكَ ، يا ماك غليڤراي ، اللَّيْلَةَ أوْ غَداً ، فَقَدْ نُواجِهُ بَعْضَ المَتاعِبِ . »

وَبَيْنَما كُنّا نُغادِرُ المَكانَ ، أمْسَكَ سير وُلْتر بِذِراعي قائِلاً : « إنَّكَ عَلى ما يُرامُ الآنَ ، يا هَنّاي ، وَسَتَكونُ بِمَأْمَنٍ تَماماً في لَنْدَن . تَعالَ وَقابِلْني غَداً ، وَلا تَتَحَدَّثْ عَنْ أولئِكَ الجَواسيسِ . وَمِنَ الأفْضَلِ لَكَ أنْ تَمْكُثَ في شَقَّتِكَ اليَوْمَ . » ثُمَّ ضَحِكَ فَجْأةً وَقالَ : « إذا رَآكَ أعْوانُ بلاك ستّون ، فَسَوْفَ يَقْتُلونَكَ . »

وَعِنْدَما انْصَرَفَ سير وُلْتر شَعَرْتُ بِالوَحْدَةِ التّامَّةِ . لَقَدْ أصْبَحْتُ حُرًّا ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ ، وَلكِنَّني كُنْتُ مُتَوَتِّرًا جِدًّا . وَذَهَبْتُ إلى فُنْدُقِ ساڤوي ، وَطَلَبْتُ وَجْبَةً شَهِيَّةً ، إلّا أنَّني لَمْ أَسْتَمْتِعْ بِها . وَكانَ النّاسُ يَتَطَلَّعونَ إليَّ ، وَتَساءَلْتُ في نَفْسي : « تُرى هَلْ تَعَرَّفوا عَلَيَّ ؟ هَلْ رَأَوْا صورَتي عَلى صَفَحاتِ الجَرائِدِ ؟ » وَسَرْعانَ ما غادَرْتُ الفُنْدُقَ .

وَبَعْدَ الظُّهْرِ رَكِبْتُ سَيّارَةَ أُجْرَةٍ ، وَاتَّجَهْتُ عِدَّةَ كيلو مِتْراتٍ شَماليَّ لَنْدَن . وَدَفَعْتُ الأُجْرَةَ لِلسّائِقِ ، ثُمَّ بَدَأْتُ أَمْشي عائِداً . وَسِرْتُ ساعاتٍ عَديدَةً ، وَأخيراً عُدْتُ إلى وَسَطِ مَدينَةِ لَنْدَن مَرَّةً ثانِيَةً ، وَكُنْتُ أشْعُرُ بِكَآبَةٍ شَديدَةٍ .

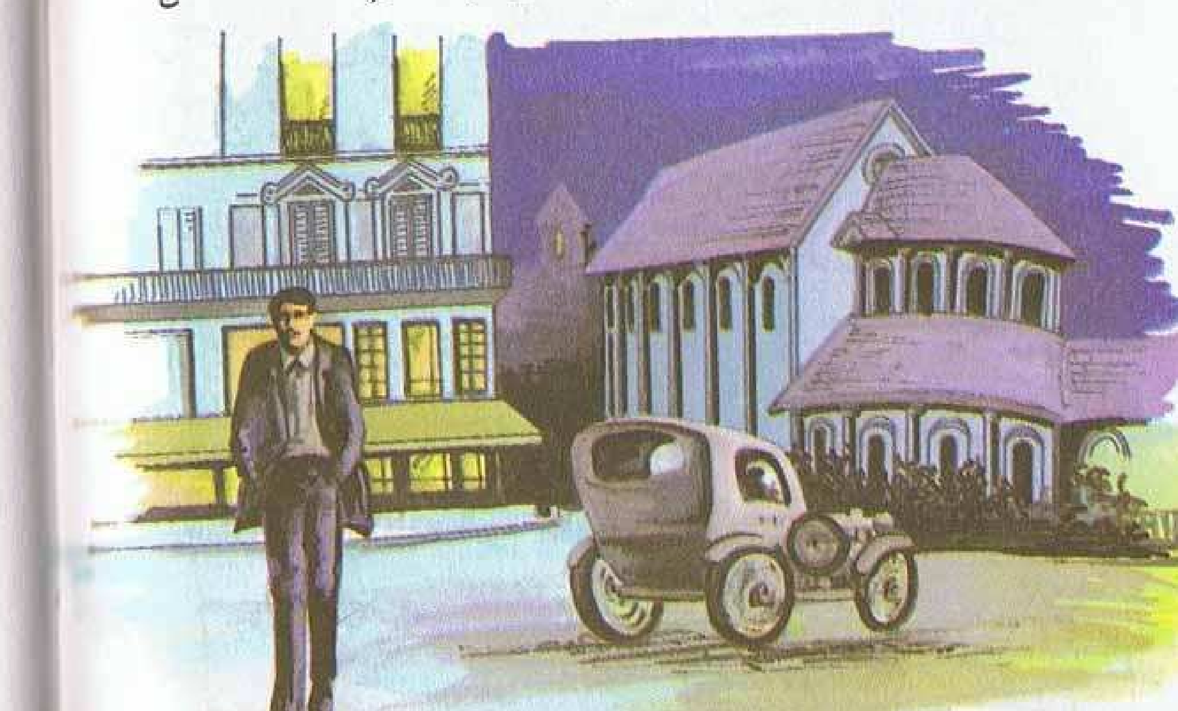
كانَتِ السّاعَةُ السّادِسَةَ ، وَكانَتْ تَجْري – في ذَلِكَ الوَقْتِ – أحْداثٌ مُهِمَّةٌ في لَنْدَن ، فَقَدْ وَصَلَها رُويه . وَكانَ سير وُلْتر مَشْغولاً في وِزارَةِ الخارِجِيَّةِ ، أوْ يَقومُ بِالتَّخْطيطِ لِلاجْتِماعِ . وَكانَ جَواسيسُ بلاك ستّون يُراقِبونَ وَيَتَرَقَّبونَ بِهُدوءٍ . وَلكِنْ ما الَّذي كُنْتُ أفْعَلُهُ أنا ؟ كُنْتُ أتَجَوَّلُ وَسَطَ مَدينَةِ لَنْدَن .

وَفَجْأةً خَطَرَتْ لي فِكْرَةٌ غَريبَةٌ ؛ فَقَدْ كُنْتُ أومِنُ بِأنَّ ثَمَّةَ خَطَرًا يُهَدِّدُ لَنْدَن في ذَلِكَ اليَوْمِ . وَهُوَ خَطَرٌ لا يَسْتَطيعُ أحَدٌ أنْ يُقاوِمَهُ إلّا

أنا فَقَطْ .

تُرى ما الَّذي يُمْكِنُني أنْ أفْعَلَهُ ؟ فسِير وُلْتر لَيْسَ في حاجَةٍ إليَّ ، وَأنا لا أسْتَطيعُ الاشْتِراكَ في اجْتِماعٍ مُهِمٍّ مِثْلِ هذا يَضُمُّ ضُبّاطًا وَ وُزَراءَ . وَيُمْكِنُني بِالطَّبْعِ أنْ أُفَتِّشَ عَنِ الجَواسيسِ الألْمانِ ، وَأسْتَطيعُ قِتالَهُمْ ، إذا وَجَدْتُهُمْ . وَكُنْتُ على يَقينٍ مِنْ شَيْءٍ واحِدٍ فَقَطْ ؛ هُوَ أنَّ وَطَني في حاجَةٍ إليَّ في هذِهِ الأزْمَةِ . فَإذا لَمْ أُفْسِدْ خُطَطَهُمْ ، فَسَوْفَ يَكْسِبُ الجَواسيسُ الألْمانُ الجَوْلَةَ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « لكِنْ هَلْ هذا صَحيحٌ ، يا هَنّاي ؟ ألا يَسْتَطيعُ سِير وُلْتر وَأصْدِقاؤُهُ أنْ يَقوموا بِرِعايَةِ مَصالِحِ بريطانْيا بِسُهولَةٍ ؟ ألا يَعْرِفُ قائِدُ البَحْرِيَّةِ شُئونَ عَمَلِهِ أفْضَلَ مِمّا تَعْرِفُ أنْتَ ؟ هَلْ



يَسْتَطيعُ قِلَّةٌ مِنَ الجَواسيسِ الألْمانِ أنْ يَفْعَلوا شَيْئًا ضِدَّ كُلِّ هذِهِ القُوَّةِ ؟ »

لَمْ أكُنْ مُتَأكِّدًا مِنْ ذلِكَ . وَكانَ ثَمَّةَ صَوْتٌ خافِتٌ يُرَدِّدُ في أُذُني : « اِفْعَلْ شَيْئًا ، يا هَنّاي ، اِنْهَضْ وَافْعَلْ شَيْئًا الآنَ ، وَإلا فَلَنْ تَنْعَمَ بِنَوْمٍ أبَدًا . »

وَفي التّاسِعَةِ وَالنِّصْفِ كُنْتُ أسيرُ في شارِعِ جيرْمين ، وَقَرَّرْتُ ما أفْعَلُهُ ، فَلا بُدَّ مِنَ الذَّهابِ إلى مَنْزِلِ سِير وُلْتر . وَكُنْتُ أعْرِفُ العُنْوانَ ، وَكانَ مِنَ السَّهْلِ عَلَيَّ أنْ أصِلَ إلَيْهِ . وَلأنَّهُ لَمْ يَكُنْ راغِبًا في رُؤْيَتي ، كانَ عَلَيَّ أنْ أفْعَلَ شَيْئًا .

وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى شارِعِ ديوك ، مَرَرْتُ بِمَجْموعَةٍ مِنَ الشُّبّانِ يَرْتَدونَ مَلابِسَ السَّهْرَةِ ، وَكانوا خارِجينَ مِنْ أحَدِ الفَنادِقِ . وَكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ مارْماديوك جوبْلي ، وَعِنْدَما رَآني تَعَرَّفَ عَلَيَّ في الحالِ ، وَصاحَ : « أُنْظُروا ! إنَّهُ القاتِلُ ! اِقْبِضوا عَلَيْهِ ! اِقْبِضوا عَلَيْهِ ! إنَّهُ القاتِلُ هَنّاي ! »

وَأمْسَكَ مارْماديوك بِذِراعي ، وَانْدَفَعَ الآخَرونَ لِمُساعَدَتِهِ . وَأقْبَلَ شُرْطِيٌّ جَرْيًا عَبْرَ الشّارِعِ ، فَضَرَبْتُ مارْماديوك بِشِدَّةٍ بِيَدي اليُسْرى ، وَرَأيْتُهُ يَسْقُطُ ، إلا أنَّ الجَمْعَ أمْسَكَ بي فَلَمْ أسْتَطِعِ الحَرَكَةَ .

سَأَلَ الشُّرْطِيُّ : « ما الَّذي يَحْدُثُ هُنا ؟ »

صَرَخَ مارْمادْيوك قائِلاً : « إِنَّهُ هَنَاي القاتِلُ ! »

قُلْتُ لَهُ : « اِهْدَأْ ، أنا لَسْتُ بِقاتِلٍ . أَصْغِ إِلَيَّ أَيُّها الشُّرْطِيُّ ، وَاعْمَلْ بِنَصيحَتي وَلا تَقْبِضْ عَلَيَّ ؛ فَمَأْمورُ الشُّرْطَةِ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنّي . لَقَدْ كُنْتُ في سْكُتْلَنْد يارْد هَذا الصَّباحَ . »

قالَ الشُّرْطِيُّ : « سَتَأْتي مَعي الآنَ أَيُّها الشّابُّ ؛ فَقَدْ رَأَيْتُكَ تَبْدَأُ الشِّجارَ . » وَأَشارَ إِلى مارْمادْيوك الَّذي كانَ لا يَزالُ مُمَدَّداً عَلى الأَرْضِ ، وَقالَ : « إِنَّ هَذا الشّابَّ لَمْ يَفْعَلْ لَكَ أَيَّ شَيْءٍ ، وَأَنا رَأَيْتُكَ تَضْرِبُهُ . وَالآنَ هَيّا مَعي بِهُدوءٍ إِلى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ . »

وَاشْتَدَّ بِيَ الغَضَبُ ، وَسَمِعْتُ الصَّوْتَ الخافِتَ يَطِنُّ في أُذُني مَرَّةً ثانِيَةً : « يَجِبُ أَنْ تَهْرُبَ . لا تُضَيِّعْ دَقيقَةً هُنا . »

وَفَجْأَةً دَبَّتْ فِيَّ قُوَّةٌ هائِلَةٌ ؛ فَاسْتَدَرْتُ بِسُرْعَةٍ وَطَرَحْتُ الشُّرْطِيَّ أَرْضاً ، وَدَفَعْتُ الرِّجالَ الآخَرينَ ، وَانْطَلَقْتُ أَعْدو في شارِعِ ديوك .

وَأَنا رَجُلٌ سَريعُ العَدْوِ إِذا أَرَدْتُ ، وَفي تِلْكَ الأُمْسِيَّةِ كِدْتُ أَطيرُ تَقْريباً . وَبَعْدَ دَقائِقَ كُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إِلى شارِعِ بُول مُول ، ثُمَّ انْحَرَفْتُ صَوْبَ حَديقَةِ سانْت جيمس . وَكُنْتُ أَعْدو بَيْنَ سَيّاراتِ

الأُجْرَةِ في شارِعِ بُول مُول ، وَعَبَرْتُ الجِسْرَ ، وَكانَ هُناكَ عَدَدٌ قَليلٌ مِنَ النّاسِ فِي الحَديقَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَوْقِفْني أَحَدٌ مِنْهُمْ . وَكانَ مَنْزِلُ سير وُلْتر في شارِعِ كُوينْز آن غيت . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إِلى هُناكَ ، أَخَذْتُ أَسيرُ بِشَكْلٍ عادِيٍّ .

وَكانَ ثَمَّةَ ثَلاثُ أَوْ أَرْبَعُ سَيّاراتٍ تَقِفُ في الشّارِعِ أَمامَ المَنْزِلِ . وَاتَّجَهْتُ إِلى البابِ وَدَقَقْتُ الجَرَسَ ؛ وَفَتَحَ كَبيرُ الخَدَمِ البابَ عَلى الفَوْرِ ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَ صَيْحاتٍ آتِيَةٍ مِنْ بَعيدٍ ، وَلَكِنِ الشّارِعَ كانَ خالِياً .

قُلْتُ لَهُ : « يَجِبُ أَنْ أُقابِلَ سير وُلْتر ؛ فَلَدَيَّ مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا. »

قالَ : « تَفَضَّلْ يا سَيِّدي . وَيُؤْسِفُني أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مُقابَلَتَهُ في الحالِ ، وَلَكِنْ يُمْكِنُكَ الانْتِظارُ في البَهْوِ حَتّى يَنْتَهِيَ الاجْتِماعُ . »

كانَ المَنْزِلُ مِنَ الطِّرازِ القَديمِ ، ذا بَهْوٍ واسِعٍ مُرَبَّعِ الشَّكْلِ ، وَكانَتِ الأَبْوابُ تُؤَدّي إِلى حُجُراتٍ مُتَعَدِّدَةٍ في كُلِّ جانِبٍ ، وَعَلى بابِ إِحْدى الحُجُراتِ كانَ يَقِفُ حارِسٌ يَرْتَدي مَلابِسَ عادِيَّةً . وَجَلَسْتُ في رُكْنٍ بِالقُرْبِ مِنَ التِّليفون .

وَأَشَرْتُ إِلى رَئيسِ الخَدَمِ قائِلاً : « إِنَّني في مَأْزِقٍ ، وَأَنا أَعْمَلُ

مِنْ أجْلِ سِير وُلْتر ، وَهُوَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ المَوْضوعِ ؛ فَالشُّرْطَةُ وَجَمْهَرَةٌ مِنَ النّاسِ يَتَعَقَّبونَني ، وَقَدْ يَحْضُرونَ إلى هُنا ، فَأَرْجوكَ ألا تُخْبِرَهُمْ بِأَنَّني مَوْجودٌ ، وَلا تَدَعْهُمْ يَدْخُلون .»

أجابَ : « سَمْعًا وَطاعَةً يا سَيِّدي .»

وَبَعْدَ مُضِيِّ دَقيقَةٍ أَوْ دَقيقَتَيْنِ سَمِعْتُ أَصْواتًا بِالخارِجِ . وَدَقَّ جَرَسُ البابِ ، وَذَهَبَ كَبيرُ الخَدَمِ لِيُجيبَ الطّارِقَ ، وَتَحَدَّثَ إلَيْهِ شَخْصٌ مِنَ الخارِجِ ، وَفَجْأَةً اعْتَدَلَ الخادِمُ في وِقْفَتِهِ ، وَقالَ :

« أنا آسِفٌ ، فَهذا مَنْزِلُ سير وُلْتر بوليڤانْت ، وَسير وُلْتر هُوَ سِكْرِتيرُ عامٌّ وِزارَةِ الخارِجِيَّةِ . وَلِلأَسَفِ لا أَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ أَيِّ قاتِلٍ . وَالآنَ أَرْجوكَ أَنْ تَنْصَرِفَ وَإلا اسْتَدْعَيْتُ الشُّرْطَةَ بِنَفْسي .»

وَعِنْدَئِذٍ أَغْلَقَ البابَ وَعادَ مِنَ البَهْوِ . وَبَعْدَ مُضِيِّ دَقيقَتَيْنِ دَقَّ الجَرَسُ ثانِيَةً ، وَدَلَفَ رَجُلٌ ، وَبَيْنَما كانَ يَخْلَعُ مِعْطَفَهُ رَأَيْتُ وَجْهَهُ. وَكانَ ، مَأْلوفًا ، وَكَثيرًا ما رَأَيْتُ صورَتَهُ في الجَرائِدِ . كانَ الرَّجُلُ هُوَ اللّورد أَلْوا قائِدَ البَحْرِيَّةِ ، وَكانَ ضَخْمًا ذا أَنْفٍ كَبيرٍ وَعَيْنَيْنِ زَرْقاوَيْنِ بَرّاقَتَيْنِ .

وَمَرَّ أَمامي ، وَفَتَحَ لَهُ الحارِسُ بابَ الحُجْرَةِ . وَانْتَظَرْتُ في البَهْوِ

عِشْرينَ دَقيقَةً ، وَفي تِلْكَ الأَثْناءِ كانَ الصَّوْتُ الخافِتُ لا يَزالُ يُرَدِّدُ في أُذُنَيَّ : « لا تَنْصَرِفْ . سَوْفَ يَحْتاجونَ إلَيْكَ .» وَدَقَّ جَرَسٌ صَغيرٌ خَلْفَ المَنْزِلِ ، فَحَضَرَ كَبيرُ الخَدَمِ – في الحالِ – إلى البَهْوِ . وَغادَرَ قائِدُ البَحْرِيَّةِ قاعَةَ الاجْتِماعاتِ ، وَناوَلَهُ كَبيرُ الخَدَمِ مِعْطَفَهُ . وَتَطَلَّعْتُ إلى الرَّجُلِ لَحْظَةً ، وَنَظَرَ هُوَ مُباشَرَةً إلَيَّ . وَحَدَثَ كُلُّ ذَلِكَ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ . وَعَلَتْ خَفَقاتُ قَلْبي فَجْأَةً ؛ إذْ لاحَظْتُ بَريقًا في عَيْنَيْهِ . وَلَمْ يَسْبِقْ لي أَنْ قابَلْتُ قائِدَ البَحْرِيَّةِ قَطُّ ، وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ قابَلَني . وَلَكِنْ لَيْسَ ثَمَّةَ شَكٌّ في بَريقِ عَيْنَيْهِ الَّذي ظَهَرَ فَجْأَةً ، إنَّ ذَلِكَ يَعْني أَنَّهُ تَعَرَّفَ عَلَيَّ . وَحَوَّلَ بَصَرَهُ عَنّي في الحالِ ، وَسارَ ناحِيَةَ البابِ الَّذي فَتَحَهُ لَهُ كَبيرُ الخَدَمِ ثُمَّ أَغْلَقَهُ خَلْفَهُ .

وَتَناوَلْتُ دَليلَ التِّليفوناتِ ، وَبَحَثْتُ بِسُرْعَةٍ عَنْ رَقْمِ تِليفونِ لورد أَلْوا ، وَأَدَرْتُ الرَّقْمَ وَرَدَّ عَلَيَّ الخادِمُ ، فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ قائِدُ البَحْرِيَّةِ مَوْجودٌ بِالبَيْتِ ؟»

أَجابَ الصَّوْتُ : « نَعَمْ يا سَيِّدي ، وَلَكِنَّهُ مُتَوَعِّكٌ قَليلاً ، وَقَدْ لَزِمَ الفِراشَ مِنْ بَعْدِ ظُهْرِ اليَوْمِ . هَلْ لي أَنْ أُبْلِغَهُ رِسالَتَكَ ، يا سَيِّدي ؟»

قُلْتُ : « لا ، شُكْرًا .» وَأَعَدْتُ السَّمّاعَةَ .

وَاجْتَزْتُ البَهْوَ بِسُرْعَةٍ إلى قاعَةِ الاجْتِماعاتِ ، وَدَخَلْتُ دونَ اسْتِئْذانٍ . وَتطَلَّعَتْ إلَيَّ بِدَهْشَةٍ خَمْسَةُ وجوهٍ مِنْ وَراءِ مائِدَةٍ مُسْتَديرَةٍ ، وَكانَ مِن بَيْنِ أَصْحابِ هذِهِ الوُجوه سِير وُلْتر ، وآرْثر درو وَزيرُ الحَرْبِيَّةِ ، وَقَدْ تَعَرَّفْتُ عَلى الأخيرِ بِسُهولَةٍ مِنْ صُوَرِهِ في الجَرائِدِ ، وَالجِنرال وِنسْتانْلي ، وَرَجُلٌ مُسِنٌّ مِنَ الأَرْجَح أنَّهُ وِيتّاكَر، وَكانَ يَقِفُ بِجانِبِهِ . أمّا الرَّجُلُ الخامِسُ فكانَ قَصيراً بَديناً لَهُ شارِبٌ رَمادِيٌّ داكِنٌ .

وَبَدا الغَضَبُ الشَّديدُ عَلى وَجْهِ سِير وُلْتر ، وَقالَ : « هذا هُوَ السَّيِّدُ هَنّاي ، أيُّها السّادَةُ ، وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنْهُ . وَلكِنْ لِماذا جِئْتَ إلى هُنا يا هَنّاي ؟ إنَّكَ تَعْلَمُ أنّنا مَشْغولونَ جِدًّا .»

قُلْتُ : « إنَّ أعْداءَكُمْ مَشْغولونَ أيْضاً يا سَيِّدي . وَقَدْ غادَرَ أحَدُهُمْ هذِهِ الحُجْرَةَ تَوًّا .»

فاحْمَرَّ وَجْهُ سِير وُلْتر وَهُوَ يَقولُ: « لكِنَّ ذَلِكَ كانَ اللّورد ألْوا .»

صِحْتُ : « لَمْ يَكُنْ هُوَ . إنَّ اللّورد ألْوا يَرْقُدُ في الفِراشِ مِنْ بَعْدِ ظُهْرِ اليَوْم . لَقَدْ تَحَدَّثْتُ حالاً إلى خادِمِهِ تِليفونِيًّا . وَالرَّجُلُ الّذي كانَ هُنا عَرَفَني ، وَاللّورد ألْوا لا يَعْرِفُني .»

وَسَأَلَ أحَدُهُمْ بِانْزِعاج : « إذاً مَنْ ... مَنْ يَكونُ ؟!»

فَصِحْتُ : « بلاك سْتُون !»

وَنَظَرْتُ حَوْلَ المائِدَةِ ، فَرَأَيْتُ الشَّكَّ وَالذُّعْرَ يُطِلّانِ مِنْ أَعْيُنِ الرِّجالِ الخَمْسَةِ .

الفصلُ التّاسعُ

التّسعُ والثّلاثون درَجَةً

قالَ السَّيِّدُ وِيتّاكَر : « لكِنَّ ذَلِكَ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ صَحيحاً ؛ لأنَّ اللّورد ألْوا أخبَرَني أنّهُ مِنَ المُحْتَمَلِ ألا يَحضُرَ الاجْتِماعَ . وأنا أعْرِفُهُ جيِّداً ولَمْ أدْهَشْ عِنْدَما رأيْتُهُ هُنا . إنَّكَ مُخطِئٌ في هذا تماماً ، يا هنّاي . »

وخَرَجَ سير وُلْتر مِنَ الحُجْرَةِ ، وتَحدَّثَ إلى شَخصٍ ما تليفونيًّا . وعِنْدَما عادَ كانَ شاحِبَ الوَجْهِ .

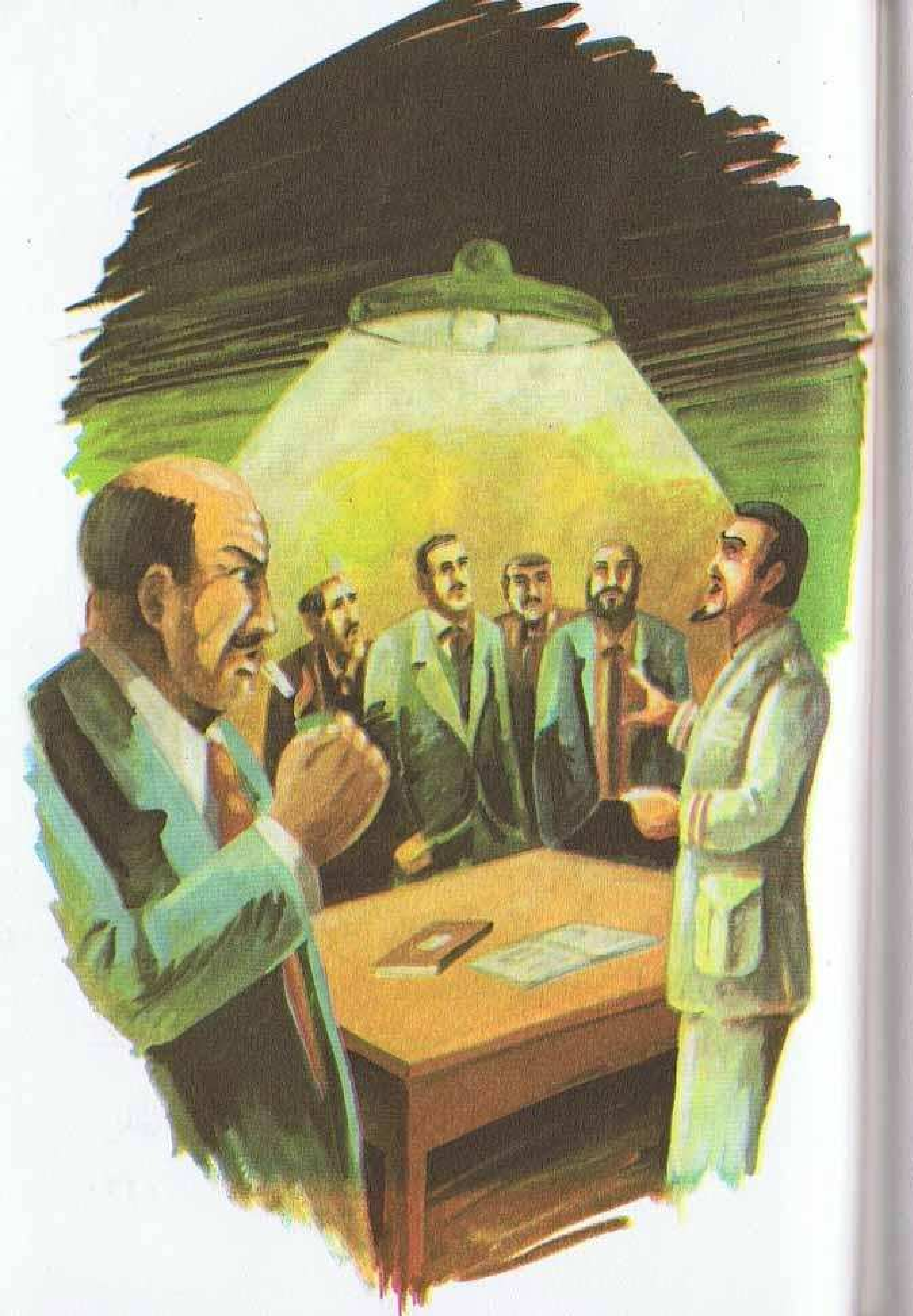
قالَ : « لَقَدْ تَحدَّثْتُ إلى ألْوا . وَقَدْ نَهَضَ مِنَ الفِراشِ لِيَرُدَّ على التّليفون . إنَّ هنّاي على صَوابٍ . والرَّجُلُ الّذي كانَ هُنا لَيسَ لورد ألْوا . »

قالَ الجِنرال وِنستانْلي : « أنا لا أصدِّقُ ذلِكَ ! لَقَدْ كانَ ألْوا يَقِفُ بِجانِبي مُنْذُ عشرِ دَقائِقَ ! »

قُلْتُ : « أيُّها السّادَةُ ، إنَّ عِصابَةَ بلاك ستُون تُتقِنُ عَمَلَها . ومِنَ المُحتَمَلِ أنّكُمْ لَمْ تُدقّقوا النَّظَرَ في الرَّجُلِ ، فَقَدْ كُنتُمْ تتكلّمونَ عَنْ تِلْكَ الخُطَطِ المُهِمَّةِ . وكانَ الرَّجُلُ يُشْبِهُ اللّورد ألْوا ؛ لِذا لَمْ تَشُكّوا فيهِ ، ولَكِنَّهُ كانَ رَجُلاً آخَرَ . ومِنَ المُحتَمَلِ أنّني رَأيْتُهُ خِلالَ الشَّهْرِ الماضي . »

بَعْدَ ذَلِكَ تَحدَّثَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ ، فقالَ بِبُطْءٍ وبِلُغَةٍ إنْجليزيَّةٍ سَليمَةٍ : « هَذا الشّابُّ عَلى حَقٍّ ، فإنَّ أعْداءَنا يُتْقِنونَ عَمَلَهُمْ تَماماً . أصْغوا إليَّ ؛ فَسَوْفَ أقُصُّ عَلَيْكُمْ قِصَّةً حَقيقيَّةً حَدَثَتْ مُنْذُ أعْوامٍ عَديدَةٍ عِنْدَما كُنْتُ في السِّنِغالِ . وكُنْتُ أعيشُ في فُنْدُقٍ ، ولَكِنَّني اعْتَدْتُ أنْ أذْهَبَ كُلَّ يَوْمٍ لِصَيْدِ السَّمَكِ . ولَمّا كانَ النَّهْرُ يَبْعُدُ عِدَّةَ كيلو مِتْراتٍ فَقَدْ تَعَوَّدْتُ عَلى الذَّهابِ إلى هُناكَ مُمْتَطِياً جَواداً .

« وذاتَ يَوْمٍ لَفَفْتُ طَعامي كالعادَةِ وعَلَّقْتُهُ في رَقَبَةِ الجَوادِ ، ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إلى النَّهْرِ . وعِنْدَما وَصَلْتُ إلى هُناكَ رَبَطْتُ الجَوادَ إلى شَجَرَةٍ وجَلَسْتُ أصْطادُ عِدَّةَ ساعاتٍ ، وَ لَمْ أكُنْ أفَكِّرُ إلّا في



السَّمَكِ . وَلَمْ أَنْتَبِهْ إلى الجَوادِ قطُّ ، ولكِنَّني كُنْتُ أسْمَعُهُ وأرى خَيالَهُ بِرُكْنِ عَيْني . وَكانَ الجَوادُ يَتحرَّكُ ، ويَصْهَلُ كثيراً ، وكُنْتُ أتحدَّثُ إلَيْهِ كالعادَةِ ، ولَكِنْ دونَ أنْ أرْفَعَ عَيْنَيَّ عَنِ الماءِ .

« وَعِنْدَما حانَ مَوْعِدُ الغَداءِ ، وَضَعْتُ السَّمَكَ في كيس ، وَسِرْتُ بِحِذاءِ ضِفَّةِ النَّهْرِ . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى الشَّجَرَةِ أَلْقَيْتُ بِالحَقيبَةِ فَوْقَ ظَهْرِ الجَوادِ . »

وَتَوَقَّفَ الرَّجُلُ الفَرَنْسِيُّ عَنِ الكَلامِ وَتَطَلَّعَ إلى الجَميعِ حَوْلَ المائِدَةِ ، ثُمَّ واصَلَ حَديثَهُ قائِلاً : « كانَ أوَّلَ شَيْءٍ لَفَتَ نَظَري هُوَ الرّائِحَةُ ، فَرَفَعْتُ بَصَري وَأَدَرْتُ رَأسي ، فَرَأَيْتُ الكيسَ فَوْقَ ظَهْرِ أسَدٍ وَالجَوادَ مَيِّتاً بَعْدَ أنِ الْتَهَمَ نِصْفَهُ ، وَكانَ النِّصْفُ الآخَرُ مُلْقًى على الأَرْضِ خَلْفَ الأسَدِ . »

سَأَلْتُهُ وَأنا أعْلَمُ أنَّها قِصَّةٌ إفْريقيَّةٌ حَقيقيَّةٌ : « ماذا حَدَثَ بَعْدَ ذلِكَ ؟ »

أجابَ : « أطْلَقْتُ الرَّصاصَ على رأسِ الأسَدِ ، وَلَكِنَّهُ قَبْلَ أنْ يَموتَ كانَ قَدْ أخَذَ جزءاً مِنّي . » وَرَفَعَ يَدَهُ اليُسْرى الَّتي لَمْ يَكُنْ بِها سِوى أُصْبُعَيْنِ فَقَطْ .

وَ واصلَ كَلامَهُ قائِلاً : « كانَ الجَوادُ قَدْ ماتَ مُنْذُ ساعَةٍ ، وَظَلَّ الأَسَدُ يُراقِبُني طَوالَ ذَلِكَ الوَقْتِ . وَكانَ ثَمَّةَ جِسْمٌ بُنِّيُّ اللَّوْنِ يَقِفُ بِجِوارِ الشَّجَرَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ رَأَيْتُ اللَّوْنَ وَالشَّكْلَ فَقَطْ ، وَلَمْ أُدَقِّقِ النَّظَرَ . تِلْكَ كانَتْ غَلْطَتي أَيُّها السّادَةُ ، وَنَحْنُ قَدِ ارْتَكَبْنا الغَلْطَةَ نَفْسَها اللَّيْلَةَ . »

وَصَدَّقَ سير وُلْتر على ذَلِكَ .

وَقالَ الجِنْرال : « هَلْ عُضْوُ عِصابَةِ بلاك ستون هذا جاسوسٌ أَلْمانِيٌّ أو شَيْءٌ مِنْ هذا القَبيلِ ؟ إِنَّ أَحَداً لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِكُلِّ هَذِهِ الحَقائِقِ وَالأَرْقام في رَأْسِهِ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّ هَذا الأَمْرَ لا يُشَكِّلُ أَهَمِّيَّةً كَبيرَةً بِالنِّسْبَةِ لي . »

أَجابَ الرَّجُلُ الفَرَنْسِيُّ : « بَلْ يُمْكِنُ ؛ فالجاسوسُ الماهِرُ يَسْتَطيعُ تَذَكُّرَ كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَعَيْناهُ مِثْلُ الكاميرا . هَلْ لاحَظْتَ أَنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ عَلى الإِطْلاقِ ؟ لَقَدْ قَرَأَ الأَوْراقَ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً . هُوَ مُتَأَكِّدٌ أَنَّ كُلَّ الحَقائِقِ لَدَيْهِ الآنَ . وَأَنا عِنْدَما كُنْتُ شابّاً ، كُنْتُ أَسْتَطيعُ فِعْلَ الشَّيْءِ نَفْسِهِ . »

قالَ سِير وُلْتر : « يَجِبُ أَنْ نُغَيِّرَ الخُطَطَ . »

وَبَدَتِ الدَّهْشَةُ عَلى وَجْهِ ويتّاكر ، وَسَأَلَ : « هَلْ قُلْتَ ذَلِكَ لِلوَرْد ألوا ؟ »

« لا . »

« مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنَّنا لا نَسْتَطيعُ أَنْ نُقَرِّرَ ذَلِكَ الآنَ ، وَ لَكِنَّني واثِقٌ تَماماً بِأَنَّنا لَوْ غَيَّرْنا الخُطَطَ ، فَعَلَيْنا أَنْ نُغَيِّرَ ساحِلَ إِنْجِلْترا أَيْضاً ! »

قالَ رُويه : « ثَمَّةَ مُشْكِلَةٌ أُخْرى ، وَهِيَ أَنَّني قَدْ ذَكَرْتُ لَكُمْ بَعْضَ الخُطَطِ الفَرَنْسِيَّةِ ، وَسَمِعَها ذَلِكَ الجاسوسُ الأَلْمانِيُّ . وَهَكَذا فَنَحْنُ لا نَسْتَطيعُ الآنَ أَنْ نُغَيِّرَ خُطَطَنا ، وَلَكِنْ بِإِمْكانِنا أَنْ نَقْبِضَ عَلى ذَلِكَ الرَّجُلِ وَأَعْوانِهِ قَبْلَ أَنْ يُغادِروا البِلادَ . »

صِحْتُ مُتَسائِلاً : « لِكنْ كَيْفَ ؟ إِنَّنا لا نَعْرِفُ أَيَّ شَيْءٍ عَنْهُمْ . »

قالَ ويتّاكر : « وَهُناكَ البَريدُ ؛ إِذْ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُرْسِلوا كُلَّ المَعْلوماتِ إِلى أَلْمانْيا بِالبَريدِ . وَرُبَّما هُمْ في طَريقِهِمْ إِلى ذَلِكَ الآنَ ، وَلا يُمْكِنُنا بِأَيِّ حالٍ أَنْ نُفَتِّشَ البَريدَ . »

قالَ الرَّجُلُ الفَرَنْسِيُّ : « لا ! إِنَّكُمْ لا تَعْرِفونَ كَيْفَ يَعْمَلُ

الجاسوسُ الماهِرُ أيُّها السّادَةُ ، إنّهُ يُدْلي بِالأسْرارِ بِنَفْسِهِ . فَالألْمانُ سَيَدْفَعونَ لِلرَّجُلِ الّذي يَحْمِلُ لَهُمُ الخُطَطَ . وَهكَذا فَالفُرْصَةُ لا تَزالُ سانِحَةً أمامَنا . وَلا بُدَّ أنْ يَعْبُرَ ذلِكَ الشَّخْصُ البَحْرَ حَتّى يَصِلَ إلى ألْمانْيا ؛ لِذا يَنْبَغي عَلَيْنا أنْ نُفَتِّشَ كُلَّ السُّفُنِ . وَصَدِّقوني ، أيُّها السّادَةُ ، فَهذِهِ مَسْألَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا لِكُلٍّ مِنْ فَرَنْسا وَبَريطانْيا .»

وَكانَ مِنَ الواضِحِ أنَّ روِيه رَجُلٌ حَكيمٌ ، وَأفْكارَهُ صائِبَةٌ . وَلكِنْ أيْنَ نَجِدُ هؤُلاءِ الجَواسيسَ الألْمانَ ؟ إنّها مُشْكِلَةٌ عَويصَةٌ جِدًّا .

وَفَجْأةً تَذَكَّرْتُ مُفَكِّرَةَ اسْكَدَر ، فَصِحْتُ : « سير وُلْتر ، هَلْ أحْضَرْتَ مُفَكِّرَةَ اسْكَدَر مَعَكَ ؟ لَقَدْ تَذَكَّرْتُ شَيْئًا مُهِمًّا جاءَ بِها .»

أوْمَأَ بِرَأسِهِ بِالإيجابِ ، وَتَوَجَّهَ إلى خِزانَةٍ وَأحْضَرَ المُفَكِّرَةَ . وَبَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ وَجَدْتُ الصَّفْحَةَ .

قَرَأْتُ : « تِسْعٌ وَثَلاثونَ دَرَجَةً . تِسْعٌ وَثَلاثونَ دَرَجَةً ، لَقَدْ عَدَدْتُها. المَدُّ العالي يَكونُ في السّاعَةِ العاشِرَةِ وَسَبْعَ عَشْرَةَ دَقيقَةً .»

وَسَألَني ويتاكَر الّذي كانَ يَتَطَلَّعُ إلَيَّ: « ماذا يَعْني كُلُّ ذلِكَ ؟»

أجَبْتُ : « كانَ اسْكَدَر يَعْرِفُ كُلَّ أولئِكَ الجَواسيس ، وَكانَ

يَعْرِفُ المَكانَ الّذي يَعيشونَ فيهِ . وَمِنَ المُحْتَمَلِ أنَّهُمْ سَيُغادِرونَ البِلادَ غَدًا ، وَأعْتَقِدُ أنَّنا سَنَجِدُهُمْ قُرْبَ البَحْرِ . وَهُناكَ دَرَجاتٌ أشْبَهُ بِالسَّلالِمِ في ذلِكَ المَكانِ . وَالمَدُّ يَكونُ عالِيًا في العاشِرَةِ وَسَبْعَ عَشْرَةَ دَقيقَةً .»

قالَ أحَدُهُمْ : « لكِنْ بِإمْكانِهِمْ أنْ يَرْحَلوا اللَّيْلَةَ ، فَلا حاجَةَ بِهِمْ إلى الانْتِظارِ حَتّى الغَدِ .»

قُلْتُ : « لا أعْتَقِدُ ذلِكَ ؛ فَلَدَيْهِمْ أساليبُهُمُ السِّرِّيَّةُ الخاصَّةُ بِهِمْ. وَلَنْ يَكونوا في عَجَلَةٍ مِنْ أمْرِهِمْ . إنَّهُمْ ألْمانٌ ، وَالألْمانُ يُفَضِّلونَ دائِمًا العَمَلَ وَفْقَ خُطَّةٍ . وَالآنَ كَيْفَ السَّبيلُ لِلْحُصولِ عَلى دَليلٍ لِحَرَكاتِ المَدِّ ؟»

قالَ ويتاكَر : « إنَّها فُرْصَةٌ ، وَلَعَلَّها فُرْصَتُنا الوَحيدَةُ لِلإمْساكِ بِهِمْ .»

سَألَ سير وُلْتر : « ألا يوجَدُ كِتابٌ عَنِ المَدِّ في البَحْرِيَّةِ ؟»

أجابَ ويتاكَر : « بَلى ، بِالطَّبْعِ ، وَمِنَ الأفْضَلِ أنْ تَذْهَبَ إلى هُناكَ فَوْرًا .»

خَرَجْنا إلى البَهْوِ ، وَقامَ كَبيرُ الخَدَمِ بِمُناوَلَةِ السّادَةِ مَعاطِفَهُمْ .

وَرَكِبْنا سيّارَتَيْنِ ، غَيْرَ أنَّ سير وُلْتر لَمْ يَذْهَبْ مَعَنا ، وَقالَ : « إنَّني ذاهِبٌ إلى شُرْطَةِ اسْكُتْلَنْد يارْد ، فَقَدْ نَحْتاجُ إلى بَعْضِ رِجالِ ماك غليفْراي .»

وَ وَصَلْنا إلى مَقَرِّ البَحْرِيَّةِ ، وَسِرْنا وَراءَ وِيتّاكَر خِلالَ غُرَفٍ مُتَعَدِّدَةٍ خاوِيَةٍ ، حَتّى وَصَلْنا إلى غُرْفَةِ الخَرائِطِ ، وَهُناكَ عَثَرَ عَلى كِتابِ المَدِّ وَناوَلَهُ لي ، وَجَلَسْتُ إلى أَحَدِ المَكاتِبِ وَ وَقَفَ الباقونَ حَوْلي .

وَكانَتِ المُهِمَّةُ شاقَّةً بِالنِّسْبَةِ لِأيٍّ واحِدٍ مِنّا ، فَثَمَّةَ مِئاتٌ مِنَ الأسْماءِ في الكِتابِ ، وَالمَدُّ يَكونُ عالِيًا في السّاعَةِ العاشِرَةِ وَسَبْعَ عَشْرَةَ دَقيقَةً في أرْبَعينَ أوْ خَمْسينَ مَكانًا .

وَ وَضَعْتُ الكِتابَ وَبَدَأْتُ أُفَكِّرُ في الدَّرَجاتِ ، وَقُلْتُ : « إنَّنا نَبْحَثُ عَنْ مَكانٍ ، يُرَجَّحُ أنْ توجَدَ فيهِ مَجْموعاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ الدَّرَجاتِ . لكِنَّ المَجْموعَةَ الَّتي تُهِمُّنا ، هِيَ الَّتي تَحْتَوي عَلى تِسْعٍ وَثَلاثينَ دَرَجَةً .»

وَأضافَ رُوِيه : « كَما أنَّ المَدَّ مُهِمٌّ أيْضًا . وَهذا يَعْني أنَّهُ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ يَكونَ المَكانُ ميناءً صَغيرًا . إنَّ هؤلاءِ الأفْرادَ لَنْ يُحاوِلوا الهَرَبَ في سَفينَةٍ كَبيرَةٍ ، بَلِ المُرَجَّحُ أنْ يَسْتَعْمِلوا يَخْتًا أوْ قارِبَ

صَيْدٍ .»

قُلْتُ : « ذلِكَ مُحْتَمَلٌ جِدًّا ، وَمِنَ المُمْكِنِ ألّا يَكونَ المَكانُ ميناءً صَغيرًا عَلى الإطْلاقِ ، فَهؤلاءِ الجَواسيسُ كانوا في لَنْدَن ، وَهُمُ الآنَ يُريدونَ الذَّهابَ إلى ألْمانْيا ؛ لِذا فَمِنَ المُحْتَمَلِ أنْ يُغادِروا البِلادَ مِنْ مَكانٍ ما عَلى السّاحِلِ الشَّرْقِيِّ .»

وَالْتَقَطْتُ قُصاصَةً مِنَ الوَرَقِ وَدَوَّنْتُ بِها تَصَوُّراتِنا :

(١) بِالمَكانِ مَجْموعاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ الدَّرَجاتِ ، وَالمَجْموعَةُ المُهِمَّةُ هِيَ الَّتي تَحْتَوي عَلى تِسْعٍ وَثَلاثينَ دَرَجَةً .

(٢) المَدُّ العالي يَحْدُثُ في العاشِرَةِ وَسَبْعَ عَشْرَةَ دَقيقَةً ، وَالمَدُّ ضَروريٌّ لِإقْلاعِ القَوارِبِ .

(٣) بِالمَكانِ ميناءٌ صَغيرٌ ، أوْ رُبَّما يَكونُ جُزْءًا مِنْ ساحِلٍ مَفْتوحٍ .

(٤) قَدْ يَسْتَعْمِلُ الألْمانُ يَخْتًا أوْ قارِبَ صَيْدٍ .

ثُمَّ اسْتَنْتَجْتُ ثَلاثَةَ أشْياءَ أُخْرى وَدَوَّنْتُها :

(١) قَدْ لا تَكونُ الدَّرَجاتُ جُزْءًا مِنَ الميناءِ .

(٢) أنَّهُ مكانٌ هادِئٌ تماماً .

(٣) يَقَعُ المكانُ على السّاحِلِ الشَّرْقِيّ بَيْنَ كرومر و دُوفر .

مَعَ مُراعاةِ البَحْثِ عَنْ يَخْتٍ أجْنَبِيٍّ » .

وَدَخَلَ سير وُلْتر غُرْفَةَ الخَرائطِ يَتْبَعُهُ ماك غليڤراي الّذي قالَ : « إنَّ الشُّرْطَةَ تُراقِبُ الموانِئَ وَمَحطّاتِ السِّكَكِ الحَديدِيَّة ، وَلَكِنْ لَنْ يكونَ الأمْرُ سَهْلاً بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ ، فَهُمْ يَبْحَثونَ عَنْ رَجُلٍ بَدينٍ ، وَآخَرَ نَحيفٍ وَثالِثٍ عَجوزٍ .»

وَعَرَضْتُ وَرَقَتي على سِير وُلْتر قائلاً : « هَذِهِ تَصَوُّراتُنا ، غَيْرَ أنّنا سَنَحْتاجُ إلى شَخْصٍ يُساعِدُنا . ثُمَّ الْتَفَتُّ إلى وِيتاكَر وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ يوجَدُ رَئيسٌ لِخَفَرِ السَّواحِلِ على الشّاطِئِ الشَّرْقِيّ ؟»

أجابَ : « لا أعْلَمُ ، وَلَكِنْ لَدَيْنا مُفَتِّشٌ لِخَفَرِ السَّواحِلِ في لَنْدَن . وَهُوَ يَسْكُنُ في كلاپام وَيَعْرِفُ السّاحِلَ الشَّرْقِيَّ تَمامَ المَعْرِفَةِ .»

سَأَلْتُهُ : « هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تَأْتِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إلى هُنا ؟»

أجابَ : « نَعَمْ ، أعْتَقِدُ ذَلِكَ . وَسَأذْهَبُ إلى مَنْزِلِهِ .»

كانَ الوَقْتُ مُتأخِّرًا عِنْدَما عادَ وِيتاكَر وَمَعَهُ المُفَتِّشُ . وَكانَ رَجُلاً عَجوزًا لَطيفاً وَمُؤَدَّباً جِدًّا .

وَفي البِدايَةِ تَحَدَّثَ إلَيْهِ سِير آرْثَر درو . قالَ : « إنّنا نَبْحَثُ عَنْ مَكانٍ على السّاحِلِ الشَّرْقِيّ حَيْثُ توجَدُ بِهِ مَجْموعاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ الدَّرَجاتِ . وَمِنَ المُحْتَمَلِ أنَّ هَذِهِ الدَّرَجاتِ تُؤَدّي إلى الشّاطِئِ ، فَهَلْ تَعْرِفُ مكانًا على هذا النَّحْوِ ؟»

قالَ : « في الحَقيقَةِ يا سَيِّدي ، لا أعْرِفُ ، لَكِنْ توجَدُ في مِنْطَقَةِ براتِلْشام في نُورفُوك دَرَجاتٌ يَسْتَعْمِلُها الصَّيّادونَ فَقَطْ .»

قُلْتُ : « لَيْسَ ذَلِكَ هُوَ المَكانَ .»

قالَ : « هُناكَ العَديدُ مِنْ أماكِنِ قَضاءِ الإجازاتِ ، وَعادَةً ما يَكونُ بِها دَرَجاتٌ قَليلَةٌ .»

قُلْتُ : « كَلا ؛ فَالمَكانُ الّذي نَقْصِدُهُ مَكانٌ هادِئٌ جِدًّا .»

قالَ : « إذًا فَأنا آسِفٌ أيُّها السّادَةُ ؛ فَأنا لا أدْري ، لَكِنْ ثَمَّةَ مِنْطَقَةٌ تُسَمّى رَف .»

قُلْتُ لَهُ : « صِفْها لي .»

قالَ : « إنَّها مِنْطَقَةٌ مُرْتَفِعَةٌ عَنِ الأَرْضِ ، عَلى ساحِلِ كِنِّت بِالقُرْبِ مِنْ برادغيت ، حَيْثُ توجَدُ منازِلُ فَخْمَةٌ فَوْقَ القِمَّةِ ، وَبَعْضُها لَهُ دَرَجاتٌ تُؤَدّي إلى الشّاطِئِ . إنَّها شَواطِئُ خاصَّةٌ بِالطَّبْعِ .»

سَأَلْتُهُ : « ماذا تَعْني بِذلِكَ ؟»

قالَ : « أَعْني يا سَيِّدي ، أَنَّ النّاسَ الَّذينَ يَمْتَلِكونَ هٰذِهِ المَنازِلَ ، يَمْتَلِكونَ الجُزْءَ المُقابِلَ لَها عَلى الشّاطِئِ . فَعِنْدَما تَشْتَري مَنْزِلاً هُناكَ تَحْصُلُ عَلى جُزْءٍ خاصٍّ مِنَ الشّاطِئِ المُقابِلِ لِلْبَيْتِ .»

تَناوَلْتُ كِتابَ المَدِّ ، وَبَحَثْتُ عَنْ مِنْطَقَةِ برادغيت ، فَوَجَدْتُ أَنَّ المَدَّ العالي يَحْدُثُ في السّاعَةِ العاشِرَةِ وَسَبْعَ عَشْرَةَ دَقيقَةً يَوْمَ ١٥ يونْيَه (حزيران) .

سَأَلْتُ المُفَتِّشَ : « كَيْفَ يُمْكِنُني أَنْ أَعْرِفَ وَقْتَ المَدِّ العالي في مِنْطَقَةِ رَف ؟»

قالَ : « أَنا أَعْرِفُ ذَلِكَ ، يا سَيِّدي ، فَقَدْ قَضَيْتُ فَتْرَةً هُناكَ في شَهْرِ يونْيَه . وَيَحُلُّ المَدُّ هُناكَ قَبْلَ حُلولِهِ في برادغيت بِعَشْرِ دَقائِقَ .»

وَأَغْلَقْتُ الكِتابَ وَتَطَلَّعْتُ حَوْلي .

ثُمَّ قُلْتُ : « سير وُلْتر ، هَلْ لي أَنْ أَسْتَعيرَ سَيّارَتَكَ وَخَريطَةَ لِلطُّرُقِ في كِنِّت ؟ وَأَوَدُّ أَنْ يَصْحَبَني بَعْضُ رِجالِكَ أَيْضاً يا ماك غِليڤْراي ؛ فَقَدْ نُفاجِئُ أولئِكَ الأَلْمانَ غَداً صَباحاً .»

وَلَمْ يَرُدّوا عَلَيَّ لِلَحْظَةٍ ، فَأَنا لا أَعْمَلُ في وِزارَةِ الخارِجِيَّةِ أَوِ البَحْرِيَّةِ ، وَلَسْتُ كَذلِكَ في الجَيْشِ البريطانِيِّ . وَلكِنَّني كُنْتُ شابّاً وَقَوِيّاً ، وَقابَلْتُ أُولئِكَ الجَواسيسَ مِنْ قَبْلُ .

وَكانَ رُويه أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ ، فَقالَ : « يُسْعِدُني تَماماً أَنْ أَعْهَدَ بِهذا المَوْضوعِ إلى السَّيِّدِ هَنّاي .»

قالَ سير وُلْتر : « أَجَلْ ، أَجَلْ ، وَأَنا أَرى ذلِكَ أَيْضاً .» وَأَوْمَأَ بِالمُوافَقَةِ إلى ماك غِليڤْراي .

وَبَعْدَ مُضِيِّ نِصْفِ السّاعَةِ كُنْتُ أَقودُ السَّيّارَةَ بِسُرْعَةٍ خِلالَ قُرى مُقاطَعَةِ كِنِّت ، وَكانَ يَجْلِسُ إلى جِواري أَفْضَلُ ضابِطٍ مِنْ ضُبّاطِ ماك غِليڤْراي . وَكانَتِ السّاعَةُ الثّالِثَةَ وَالنِّصْفَ صَباحاً .

الفصلُ العاشرُ

المنزلُ المواجهُ للبحرِ

نَزَلْنا بِفُنْدُقِ غْرِيفِين في برادْغِيت . وَفي السّابِعَةِ صَباحاً كُنْتُ أَتَطَلَّعُ مِنْ نافِذَةِ الفُنْدُقِ . وَكانَ يَوماً جَميلاً .

وَكانَ ثَمَّةَ رَجُلٌ يَصْطادُ السَّمَكَ عِنْدَ الميناءِ ، وَتَذَكَّرْتُ حِكايَةَ رُوِيه عَنِ الأسَدِ .

وَ وَصَلَتْ في ذَلِكَ الوَقْتِ سَفينَةٌ حَرْبِيَّةٌ صَغيرَةٌ ، وَرَسَتْ جَنوبَ الميناءِ ، فَنادَيْتُ الضّابِطَ وَسَأَلْتُهُ : « أَيُّها الضّابِطُ اسكيف ، هَلْ تَعْرِفُ هذِهِ السَّفينَةَ ؟ لَعَلَّ وِيتاكَر هُوَ الَّذي أَرْسَلَها إلى هُنا .»

أَجابَ : « لا أَظُنُّ ذلِكَ . إِنَّها مَوْجودَةٌ دائِماً في ذلِكَ الجُزْءِ مِنَ السّاحِلِ .» وَذَكَرَ لي اسْمَها وَاسْمَ رُبّانِها ، فَتَوَجَّهْتُ إلى مَكْتَبِ

التِّليفونِ ، وَأَرْسَلْتُ بَرْقِيَّةً بِخُصوصِها إلى سِير وُلْتر .

وَبَعْدَ الإفْطارِ سِرْتُ وَاسْكيف بِمُحاذاةِ الشّاطِئِ ، وَاتَّجَهْنا ناحِيَةَ السَّلالِمِ المَوْجودَةِ في مِنْطَقَةِ رَف ، وَتَوَقَّفْنا عَلى بُعْدِ كيلو مِتْرٍ تَقْريباً .

قُلْتُ : « لَنْ أُكْمِلَ السَّيْرَ مَعَكَ ، فَهؤلاءِ الرِّجالُ يَعْرِفونَني جَيِّداً. سَأَنْتَظِرُ هُنا ، وَاذْهَبْ أَنْتَ وَقُمْ بِعَدِّ الدَّرَجاتِ كُلِّها .»

وَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُ خَلْفَ صَخْرَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلى الشّاطِئِ أَحَدٌ ، وَكانَتِ السّاعَةُ العاشِرَةَ عِنْدَما عادَ اسكيف .

قالَ : « هُناكَ سِتُّ مَجْموعاتٍ مِنَ الدَّرَجِ ، وَتُؤَدّي إلى سِتَّةِ مَنازِلَ مُخْتَلِفَةٍ .» وَأَخْرَجَ قِطْعَةَ وَرَقٍ مِنْ جَيْبِهِ وَقَرَأَها : « أَرْبَعٌ وَثَلاثونَ ، خَمْسٌ وَثَلاثونَ ، تِسْعٌ وَثَلاثونَ ، اِثْنَتانِ وَأَرْبَعونَ ، سَبْعٌ وَأَرْبَعونَ ، إِحْدى وَعِشْرونَ .»

شَعَرْتُ بِسَعادَةٍ بالِغَةٍ حَتّى إِنَّني قَفَزْتُ واقِفاً وَأَنا أَصيحُ !

وَعُدْنا مُسْرِعَيْنِ إلى برادْغِيت ، وَأَرْسَلْنا بَرْقِيَّةً إلى ماك غليڤراي ، وَكُنْتُ في حاجَةٍ إلى سِتَّةِ رِجالٍ أَشِدّاءَ ، عَلى أَنْ يُقيموا في عِدَّةِ فَنادِقَ مُخْتَلِفَةٍ بِالمَدينَةِ .

قُلْتُ لاسْكيف : « عُدِ الآنَ إلى المَنْزِلِ ذي التِّسْعِ وَالثَّلاثينَ دَرجَةً ، وأَلْقِ نَظْرَةً عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَوجَّهْ إلى مَكْتَبِ البَريدِ ، وَاسْتَعْلِمْ عَمَّنْ يَسْكُنُ فيهِ .»

وَعادَ وَمَعَهُ بَعْضُ الحَقائِقِ الغَريبَةِ ، وَلكِنَّها مُثيرَةٌ لِلاهْتِمام ؛ فَالمَنْزِلُ مَعْروفٌ بِاسْمِ ترافَلْغار لُودْج ، وَيَمْلِكُهُ رَجُلٌ عَجوزٌ اسْمُهُ أَبِلْتون ، وَغالِباً ما كانَ أَبِلْتون هذا يَقْضي أَشْهُرَ الصَّيْفِ فيهِ . وَلَقَدْ وَصَلَ مُنْذُ أُسْبوع وَلا يَزالُ مُقيماً فيهِ ، وَلا أَحَدَ يَعْرِفُ عَنْهُ الكَثير ، وَلكِنَّهُ كانَ يَبْدو لَطيفاً هادِئاً .

وَاخْتَلَقَ اسْكيف بَعْضَ الأَسْبابِ لِزِيارَةِ المَنْزِلِ ، فَلاحَظَ هُناكَ وُجودَ ثَلاثِ سَيِّداتٍ .

قالَ : « إِنَّهُنَّ يُشْرِفْنَ عَلى المَنْزِلِ ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَكُنَّ أَلْمانِيَّاتٍ ، فَهُنَّ يَتَحَدَّثْنَ كَثيراً جِدًّا عَنْ إِشْرافِهِنَّ عَلى المَنْزِلِ .»

سَأَلْتُهُ : « هَلْ لاحَظْتَ المَنازِلَ المُجاوِرَةَ لِهذا المَنْزِلِ عَلى كِلا الجانِبَيْنِ ؟»

أَجابَ : « نَعَمْ ، المَنْزِلُ الأَيْمَنُ خالٍ مِنَ السُّكّانِ ، أَمّا المَنْزِلُ الأَيْسَرُ فَلا يَزالُ في مَرْحَلَةِ البِناءِ .»

وَقَبْلَ الغَداءِ سِرْتُ وَحْدي في مِنْطَقَةِ رَف ، وَمَعي تِلِسْكوب (مِقْرابُ) اسْكيف . وَ وَصَلْتُ إلى مَكانٍ هادِئٍ بَعيدٍ عَنِ المَنازِلِ وَجَلَسْتُ فيهِ ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى المَنْزِلَ بِوُضوحٍ تامٍّ مِنْ خِلالِ التِّلِسْكوب . وَكانَ مَبْنِيًّا مِنَ الحِجارَةِ الحَمْراءِ ، وَلَهُ نَوافِذُ عَريضَةٌ ، وَتُحيطُ بِهِ حَديقَةٌ مِنْ كُلِّ الجَوانِبِ ، وَكانَ العَلَمُ البَريطانِيُّ يُرَفْرِفُ فَوْقَ سارِيَةٍ عالِيَةٍ أَمامَهُ .

وَرَأَيْتُ رَجُلاً يُغادِرُ المَنْزِلَ مُتَّجِهاً ناحِيَةَ قِمَّةِ التَّلِّ ، وَكانَ رَجُلاً عَجوزاً يَرْتَدي بَنْطَلوناً أَبْيَضَ وَمِعْطَفاً أَزْرَقَ ، وَيَحْمِلُ تِلِسْكوباً أَيْضاً ، وَتَحْتَ ذِراعِهِ صَحيفَةٌ . وَسارَ حَوالى مِئَةٍ وَخَمْسينَ مِتْراً ، ثُمَّ جَلَسَ عَلى أَحَدِ المَقاعِدِ لِيَقْرَأَ الصَّحيفَةَ . وَبَعْدَ عِدَّةِ دَقائِقَ وَضَعَ الصَّحيفَةَ جانِباً ، وَراحَ يُراقِبُ السَّفينَةَ الحَرْبِيَّةَ مِنْ خِلالِ التِّلِسْكوب فَتْرَةً طَويلَةً ، وَأَخَذْتُ أُراقِبُهُ نِصْفَ ساعَةٍ . وَبَعْدَ ذلِكَ نَهَضَ وَعادَ إلى المَنْزِلِ ، وَعُدْتُ أَنا إلى الفُنْدُقِ .



وَلَمْ أكُنْ مُطْمَئِنًّا لِهذا العَجوزِ ، فَهُوَ لا يَبْدو مِثْلَ جاسوسٍ ، وَلكِنْ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ يكونَ هُوَ ذلِكَ العَجوزَ الّذي كانَ مَوْجوداً في المَزْرَعَةِ الاسْكُتْلَنْدِيَّةِ .

وَبَعْدَ الظُّهْرِ حَدَثَ شَيْءٌ مُثيرٌ لِلاهْتِمام ، فَقَدْ وَصَلَ يَخْتٌ مِنْ جِهَةِ الجَنوبِ ، وَرَسا بِالقُرْبِ مِنْ مِنْطَقَةِ رَف ، وَكانَتْ حُمولَتُهُ حَوالى مِئَةٍ وَخَمْسينَ طُنًّا ، وَكانَ يُرَفْرِفُ عَلَيْهِ العَلَمُ البريطانِيُّ . وَذَهَبْتُ أنا وَاسْكيف ناحِيَةَ الميناءِ ، وَتَحَدَّثْنا إلى حارِسِ السّاحِلِ هُناكَ ، وَأخْبَرْناهُ بِرَغْبَتِنا في صَيْدِ السَّمَكِ ؛ فَأحْضَرَ لَنا قارِباً ، وَأبْحَرْنا خارِجَ الميناءِ .

وَاصْطَدْنا حَوالى عَشَرَةِ كيلو غراماتٍ مِنَ السَّمَكِ خِلالَ فَتْرَةِ ما بَعْدَ الظُّهْرِ تِلْكَ . وَفي حَوالى السّاعَةِ الرّابِعَةِ اقْتَرَبْنا مِنَ اليَخْتِ ، الّذي بَدا وَكَأنَّهُ طائِرٌ أبْيَضُ رائِعٌ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

قالَ اسْكيف : « إنَّهُ يَخْتٌ سَريعٌ ، وَعَلى مَنْ يَرْغَبُ في السَّفَرِ بِسُرْعَةٍ ، أنْ يَرْكَبَ هذا اليَخْتَ ، فَمُحَرِّكاتُهُ قَوِيَّةٌ لِلْغايَةِ . »

وَكانَ اسْمُ اليَخْتِ أرِيادْني . وَتَبادَلْنا الحَديثَ مَعَ بَعْضِ الرِّجالِ المَوْجودينَ عَلى سَطْحِهِ ، وَكانَ مِنَ الواضِحِ أنَّهُمْ إنْجليزٌ . ثُمَّ ظَهَرَ

ضابِطٌ ؛ فَتَوَقَّفَ الرِّجالُ عَنِ الكَلام . وَكانَ الضّابِطُ شابًّا ذا وَجْهٍ مُشْرِقٍ ، وَكانَ يَتَحَدَّثُ الإنْجليزِيَّةَ بِطَلاقَةٍ ، وَلكِنَّنا كُنّا موقِنينَ مِنْ أنَّهُ لَيْسَ إنْجليزِيًّا ؛ لِأنَّ شَعْرَهُ كانَ قَصيراً جِدًّا ، وَكانَتْ مَلابِسُهُ تَبْدو أجْنَبِيَّةً تَماماً .

وَفي المَساءِ قابَلْتُ رُبّانَ السَّفينَةِ الحَرْبِيَّةِ في الفُنْدُقِ ، وَقُلْتُ لَهُ : « رُبَّما نَحْتاجُ إلى سَفينَتِكَ اللَّيْلَةَ أوْ غَداً . هَلْ حَصَلْتَ عَلى مَعْلوماتٍ جَديدَةٍ . »

أجابَ: « نَعَمْ ، يا سَيِّدي ؛ فَقَدْ وَصَلَتْنا بَرْقِيَّةٌ مِنْ قِيادَةِ البَحْرِيَّةِ ، وَسَأقْتَرِبُ بِها عِنْدَما يَحُلُّ الظَّلامُ . وَأنا أعْرِفُ ما يَنْبَغي عَلَيَّ عَمَلُهُ . »

وَبَعْدَ ساعَةٍ تَقْريباً عُدْتُ ثانِيَةً إلى قِمَّةِ التَّلِّ ناحِيَةَ مَنْزِلِ ترافَلْغار لودْج . وَكانَ العَجوزُ مَعَ شابٍّ يَميلُ إلى البَدانَةِ يَلْعَبانِ التِّنِسَ في الحَديقَةِ . وَبَيْنَما كُنْتُ أراقِبُهُما جاءَتْ إحْدى السَّيِّداتِ ، وَمَعَها زُجاجاتٌ وَأكْوابٌ ، وَتَناوَلَها الشّابُّ مِنْها .

قُلْتُ لِنَفْسي : « يَبْدو أنَّهُ لا غُبارَ عَلى هؤلاءِ النّاسِ ، فَهُمْ مُخْتَلِفونَ تَماماً عَنْ أولئِكَ الرِّجالِ المُزْعِجينَ في اسْكُتْلَنْدا ، وَلَعَلّي أخْطَأْتُ . »

بَعْدَ ذلِكَ وَصَلَ رَجُلٌ آخَرُ إلى المَنْزِلِ راكِباً دَرّاجَةً ، وَكانَ نَحيفاً صَغيرَ السِّنِّ أَسْوَدَ الشَّعْرِ . وَفَرَغَ الرَّجُلانِ مِنْ مُباراةِ التِّنِس ، وَدَخَلَ الجَميعُ المَنْزِلَ .

وَسِرْتُ بِبُطْءٍ عائِداً إلى الفُنْدُقِ . تُرى هَلْ كُنْتُ مُخْطِئاً في حَقِّ هؤلاءِ النّاسِ ؟ هَلْ كانوا يُمَثِّلونَ حينَما كُنْتُ أُراقِبُهُمْ ؟ لكِنَّهُمْ لَمْ يَكونوا عَلى دِرايَةٍ بِأَنَّ هُناكَ مَنْ يُراقِبُهُمْ ، وَكانوا يَتَصَرَّفونَ مِثْلَ المُواطِنينَ الإنْجليزِ .

وَلكِنْ ثَمَّةَ ثَلاثَةُ رِجالٍ في ذلِكَ المَنْزِلِ : العَجوزُ ، وَالبَدينُ ، وَالنَّحيفُ الأَسْوَدُ الشَّعْرِ . وَتَتَّفِقُ أَوْصافُ المَنْزِلِ تَماماً مَعَ ما جاءَ في مُفَكِّرَةِ اسْكَدر . وَثَمَّةَ يَخْتٌ يَرْسو عَلى بُعْدِ كيلو مِتْرٍ تَقْريباً ، وَعَلى سَطْحِهِ ضابِطٌ أَجْنَبِيٌّ . وَفَكَّرْتُ في كارولِيدِس وَخَطَرِ الحَرْبِ ، وَتَذَكَّرْتُ خَوْفَ سير آرْثَر درو الَّذي ارْتَسَمَ عَلى وَجْهِهِ .

وَكُنْتُ أَعْرِفُ ما يَنْبَغي عَلَيَّ عَمَلُهُ . كانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَوَجَّهَ إلى ذلِكَ المَنْزِلِ ، وَأَقْبِضَ عَلى هؤلاءِ الرِّجالِ . وَإذا كُنْتُ مُخْطِئاً ، فَإنَّ اللَّوْمَ يَقَعُ عَلى عاتِقي وَحْدي . وَلكِنَّني لَمْ أَكُنْ راضِياً عَنِ المُهِمَّةِ .

وَفَجْأَةً تَذَكَّرْتُ صَديقي بيتر بيانار الرّوديسِيَّ ، وَكانَ مِنَ الخارِجينَ عَلى القانونِ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ شُرْطِيّاً . وَفي الحَقيقَةِ قَبِلَت

الشُّرْطَةُ لِهذا السَّبَبِ أَنْ يَعْمَلَ بِها ؛ فَهُوَ يَعْرِفُ أَعْتى المُجْرِمينَ في البَلَدِ كُلِّهِ . وَحَكى لي ذاتَ مَرَّةٍ أَنَّهُ هَرَبَ بِسُهولَةٍ جِدّاً مِنَ الشُّرْطَةِ ؛ فَقَدْ تَخَفّى في زِيٍّ أَسْوَدَ ، وَجَلَسَ في مُنْتَدًى أَدَبِيٍّ بِجِوارِ ضابِطِ شُرْطَةٍ ، وَبادَلَهُ الحَديثَ دونَ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ الضّابِطُ .

وَسَأَلْتُهُ عَنْ سِرِّ عَدَمِ تَعَرُّفِ الضّابِطِ عَلَيْهِ ، فَأَجابَ : « لأَنَّ المَكانَ وَمَلابِسي مُخْتَلِفانِ . فَكانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَعْرِفَني لَوْ أَنَّني كُنْتُ في الشّارِعِ أَوْ في فُنْدُقٍ مَثَلاً ، لكِنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ أَنَّني قَدْ أَذْهَبُ إلى مِثْلِ هذا المَكانِ ، أَوْ أَنْ أَرْتَدِيَ مِعْطَفاً أَسْوَدَ طَويلاً . »

جَعَلَتْني هذِهِ الأَفْكارُ مَرَّةً أُخْرى عَلى يَقينٍ تامٍّ بِأَنَّ أَعْداءَنا الأَلْمانَ ذَوو حِكْمَةٍ مِثْلُ بيتر ؛ فَهُمْ يَعيشونَ في بَيْتٍ إنْجليزِيٍّ ، وَتَحْتَ رايَةٍ إنْجليزِيَّةٍ تُرَفْرِفُ في الحَديقَةِ ، وَيَسْتَعْمِلونَ أَسْماءً إنْجليزِيَّةً ، وَيَلْعَبونَ أَلْعاباً إنْجليزِيَّةً ، وَحَياتُهُمُ الخاصَّةُ إنْجليزِيَّةٌ تَماماً ؛ وَهكَذا لَمْ يَشُكَّ فيهِمْ أَحَدٌ .

كانَتِ السّاعَةُ آنَذاكَ الثّامِنَةَ مَساءً ، حينَما قابَلْتُ اسْكيف في الفُنْدُقِ ، وَأَعْطَيْتُهُ الأَوامِرَ .

قُلْتُ لَهُ : « ضَعْ رَجُلَيْنِ في الحَديقَةِ ، وَاجْعَلْ ثَلاثَةً آخَرينَ

يَخْتَبِئونَ بِجِوارِ النّافِذَةِ . وَعِنْدَما أُريدُكَ سَأُناديكَ .»

لَمْ أَكُنْ جائِعاً ؛ لِذا خَرَجْتُ أَتَمَشّى ، فَلاحَظْتُ الأَضْواءَ تَنْبَعِثُ مِنَ اليَخْتِ أَرْيادْني وَالسَّفينَةِ الحَرْبِيَّةِ . وَجَلَسْتُ عَلى مَقْعَدٍ وَانْتَظَرْتُ أَكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ .

في التّاسِعَةِ وَالنِّصْفِ تَوَجَّهْتُ إلى ترافَلْغار لودْج ، وَكانَ رِجالُ اسْكِيف في مَواقِعِهِمْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وَلكِنَّني لَمْ أَرَ أَحَداً مِنْهُمْ . وَكانَتِ الأَضْواءُ تَنْبَعِثُ مِنَ المَنْزِلِ ، وَالنَّوافِذُ مَفْتوحَةً . وَدَقَقْتُ الجَرَسَ ، فَفَتَحَتْ إِحْدى النِّساءِ .

سَأَلْتُها : « هَلْ يُمْكِنُني التَّحَدُّثُ إلى السَّيِّدِ أَبِلْتون ؟»

أَجابَتْ : « نَعَمْ ، يا سَيِّدي ، تَفَضَّلْ بِالدُّخولِ .»

كُنْتُ قَدْ وَضَعْتُ خُطَّةً ، تَقْضي بِأَنْ أَدْخُلَ مُباشَرَةً المَنْزِلَ وَأَرى وُجوهَ هؤلاءِ الأَلْمانِ الثَّلاثَةِ ، فَإِذا تَعَرَّفوا عَلَيَّ في الحالِ بَدا ذلِكَ عَلى وُجوهِهِمْ . وَلكِنَّني عِنْدَما دَخَلْتُ لَمْ أَسْتَطِعِ الحَرَكَةَ ، وَلاحَظْتُ وُجودَ قُبَّعاتِهِمْ وَمَعاطِفِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ . وَكانَتْ ثَمَّةَ ساعَةُ حائِطٍ كَبيرَةٌ في أَحَدِ أَرْكانِ البَهْوِ ، وَلَوْحاتٌ إِنْجِليزِيَّةٌ مُعَلَّقَةٌ عَلى الجُدْرانِ . وَكانَ المَكانُ مِثْلَ عَشَراتِ الآلافِ مِنَ البُيوتِ الإِنْجِليزِيَّةِ .

سَأَلَتْني السَّيِّدَةُ : « ما اسْمُكَ يا سَيِّدي ؟»

أَجَبْتُ : « هَنّاي . رِيتْشارْد هَنّاي .»

ذَهَبَتِ السَّيِّدَةُ إلى غُرْفَةٍ ما ، ثُمَّ نادَتْني ، فَتَبِعْتُها عَلى الفَوْرِ ، وَلكِنَّني وَصَلْتُ مُتَأَخِّراً ، حَتّى إِنَّهُ كانَ لَدى الرِّجالِ الثَّلاثَةِ فُرْصَةٌ لإِخْفاءِ دَهْشَتِهِمْ .

كانَ الرَّجُلُ العَجوزُ واقِفاً ، وَكانَ يَرْتَدي هُوَ وَالرَّجُلُ البَدينُ مَلابِسَ السَّهْرَةِ . أَمّا الرَّجُلُ الآخَرُ فَكانَ يَرْتَدي حُلَّةً زَرْقاءَ .

قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ : « سَيِّدُ هَنّاي ! إِنَّكَ تُريدُ أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَيَّ ، عَلى ما أَعْتَقِدُ . بِإِذْنِكُما يازَميلَيَّ . تَفَضَّلْ ، يا سَيِّدُ هَنّاي ، إلى الحُجْرَةِ المُجاوِرَةِ .»

سَحَبْتُ مَقْعَداً ناحِيَتي وَجَلَسْتُ قائِلاً : « لَقَدْ تَقابَلْنا مِنْ قَبْلُ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ مُهِمَّتي .»

لَمْ يَكُنِ الضَّوْءُ مُبْهِراً في الحُجْرَةِ ، إلا أَنَّني لاحَظْتُ أَنَّ الدَّهْشَةَ بَدَتْ عَلَيْهِمْ جَميعاً .

قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ : « مِنَ المُحْتَمَلِ أَنَّنا تَقابَلْنا ، لكِنَّني لا أَسْتَطيعُ تَذَكُّرَ ذلِكَ . أَنا آسِفٌ لأَنَّني لا أَعْرِفُ مُهِمَّتَكَ ، يا سَيِّدي ،

فَهَلْ تَتَفضَّلُ وتُخْبِرُني بِها ؟»

فَكَّرْتُ في بِيتَر بِيانار ، وَقُلْتُ : « هذِهِ هِيَ النِّهايَةُ ، أيُّها السّادَةُ ، فَقَدْ جِئْتُ لأُلْقِيَ القَبْضَ عَلَيْكُمْ جَميعاً .»

قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ : « تَقْبِضُ عَلَيْنا ! لكِنْ لِماذا ؟»

« أَقْبِضُ عَلَيْكُمْ لارْتِكابِكُمْ جَريمَةَ قَتْلِ فرانكلين اسْكدر في لَنْدَن ، يَوْمَ ٢٣ مايو .»

قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ ، وَقَدْ بَدا عَلى صَوْتِهِ الضَّعْفُ الشَّديدُ : « أنا لَمْ أَسْمَعْ بِذلِكَ الإِسْمِ مِنْ قَبْلُ .»

عِنْدَئِذٍ تَكَلَّمَ الرَّجُلُ البَدينُ ، وَقالَ : « لَقَدْ قَرأْتُ عَنْ ذلِكَ في الصُّحُفِ ، وَكانَ شَيْئاً فَظيعاً ! وَنَحْنُ لا نَعْرِفُ عَنْها شَيْئاً ، يا سَيِّدي ، وَلكِنْ ما صِلَتُكَ بِذلِكَ ؟»

قُلْتُ : « أنا مِنْ شُرْطَةِ اسكُتْلَنْد يارْد .»

لَمْ يَتَفَوَّهوا بِكَلِمَةٍ عِنْدَما سَمِعوا ذلِكَ . وَتَطَلَّعَ الرَّجُلُ العَجوزُ إلى قَدَمَيْهِ ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ العَصَبِيَّةُ .

عِنْدَئِذٍ تَكَلَّمَ الرَّجُلُ البَدينُ ، وقالَ : « لا بُدَّ أنَّ ثَمَّةَ خَطأً ما ،

يا عَمّي ، فَمِثْلُ هذِهِ الأُمورِ تَحْدُثُ أَحْياناً ، وَلكِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نُثْبِتَ الحَقيقَةَ بِسُهولَةٍ ، فَأَنا لَمْ أَكُنْ في إنْجِلْتِرا يَوْمَ ٢٣ مايو ، وَأَنْتَ ، يا بوب كُنْتَ مَريضاً ، أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟ أَنْتَ يا عَمّي ، كُنْتَ في لَنْدَن ، وَأنا أَعْرِفُ ذلِكَ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَشْرَحَ مُهِمَّتَكَ هُناكَ .»

« هذا صَحيحٌ ، يا بيرسي ! ما الَّذي فَعَلْتُهُ أنا يَوْمَ ٢٣ مايو ؟ آهٍ، تَذَكَّرْتُ ؛ لَقَدْ جِئْتُ صَباحاً مِنْ وُكِنْغ ، وَتَناوَلْتُ الغَداءَ مَعَ شارْلي سَيْمُونْز ، وَبَعْدَ الظُّهْرِ كُنْتُ في غرانْثام هاوْس ، وَبَقيتُ هُناكَ طَوالَ فَتْرَةِ المَساءِ .»

وَنَظَرَ إلَيَّ الرَّجُلُ البَدينُ وَقالَ : « يُؤْسِفُني أَنَّكَ وَقَعْتَ في خَطأً ، يا سَيِّدي ، وَسَوْفَ نُساعِدُكَ بِالطَّبْعِ إذا كانَ في إمْكانِنا ذلِكَ ، فَشُرْطَةُ اسْكُتْلَنْد يارْد تُخْطِئُ أَحْياناً .»

قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ : « أَجَلْ . وَفي الحَقيقَةِ سَوْفَ نَفْعَلُ أَيَّ شَيْءٍ لِمُساعَدَتِكَ ، يا سَيِّدي ، وَلكِنْ مِنَ الواضِحِ أَنَّ هذِهِ غَلْطَةٌ .»

قالَ أَحَدُهُمْ : « أَلَنْ تَضْحَكَ نيللي ، عِنْدَما تَسْمَعُ بِذلِكَ ؟!»

« سَتَضْحَكُ بِالطَّبْعِ ! وَلا بُدَّ مِنْ أَنْ أُخْبِرَ شارْلي بِذلِكَ أَيْضاً . وَالآنَ اسْمَعْ ، يا سَيِّدُ هَنّاي ، أنا لَسْتُ غاضِباً مِنْكَ ، وَلكِنَّكَ لَمْ

تأتِ إلى المَكانِ الصَّحيح .»

لا يُمْكِنُ أنْ يكونَ ذلِكَ تَمْثيلاً . وَأيْقَنْتُ أنَّ ما أراهُ حقيقِيٌّ ، وأنَّني أخْطأتُ ، وَ وَدِدْتُ أنْ أعْتَذِرَ لَهُمْ ، ثُمَّ أغادرَ المَنْزِلَ .

إنَّ الرَّجُلَ العجوزَ كانَ أصْلَعَ ، وَالرَّجُلَ البَدينَ كانَ مَوْجوداً أيْضاً ، وَالرَّجُلَ الثَّالِثَ نَحيفَ أسْوَدَ الشَّعْرِ . وَأمْعَنْتُ النَّظَرَ فيهِمْ ، وَتَطَلَّعْتُ إلى أرْجاءِ الحُجْرَةِ ، فَلَمْ أرَ فيها شَيْئاً واحِداً يَبْعَثُ على الشَّكِّ ، وَلَمْ أسْتَطِعِ التَّعَرُّفَ على وُجوهِهِمْ .

سَألَني الرَّجُلُ العَجوزُ : « ألا تَتَّفِقُ مَعي ، ياسَيِّدي ، على أنَّكَ أخْطَأتَ المَنْزِلَ ؟»

قالَ الرَّجُلُ النَّحيفُ : « إنَّها مَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ . أ تَنْوي اقْتِيادَنا إلى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ ؟ إنَّني أعْرِفُ أنَّكَ تُؤَدِّي واجِبَكَ ، وَلكِنَّ هذا صَعْبٌ جِدًّا .»

لَمْ أرُدَّ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ في نَفْسي: « آهٍ يا بِيتَر بِيانار ، ساعِدْني !»

نَهَضَ الرَّجُلُ البَدينُ قائلاً : « رُبَّما يكونُ السَّيِّدُ هَناي في حاجَةٍ إلى مَزيدٍ مِنَ الوَقْتِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ مُشْكِلَةً سَهْلَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ. دَعونا نَلْعَبِ البريدْجَ لِمُدَّةِ نِصْفِ ساعَةٍ ، هَلْ تَلْعَبُ ياسَيِّدي ؟»

قُلْتُ : « لا بَأسَ ، فَلَدَيَّ وَقْتٌ طَويلٌ ، وَأنا أُحِبُّ لُعْبَةَ البريدْج .»

وَانْتَقَلْنا إلى حُجْرَةٍ مُجاوِرَةٍ وَتَفَحَّصْتُها ؛ كانَ بِها كُتُبٌ وَصُحُفٌ مُلْقاةٌ في أنْحاءِ الحُجْرَةِ ، وَكانَتْ أدَواتُ التِّنِس مَحْفوظَةً فى دولابٍ مَفْتوحٍ في رُكْنِ الغُرْفَةِ ، وَكانَ تِليسكوبُ الرَّجُلِ العَجوزِ مَوْضوعاً أعْلى الدّولابِ .

وَجَلَسْنا حَوْلَ مائِدَةِ اللَّعِبِ وَسَطَ الحُجْرَةِ . وَأحْضَرَ لِيَ الشَّابُّ النَّحيفُ الأسْوَدُ الشَّعْرِ كوباً مِنْ عَصيرِ البُرْتُقالِ ، وَلَعِبْتُ مَعَهُ ضِدَّ الآخَرَيْنِ .

كُنْتُ كَمَنْ يَحْلُمُ ، وَكانَتِ النَّوافِذُ مَفْتوحَةً ، وَاسْتَطَعْتُ أنْ أرى ضَوْءَ القَمَرِ يَسْطَعُ فَوْقَ سَطْحِ مِياهِ البَحْرِ . وَلَمْ يَكُنِ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ خائِفينَ عَلى الإطْلاقِ ، بَلْ كانوا يَتَحَدَّثونَ وَيَضْحَكونَ مَعَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً . أمّا قَلْبي فَكانَ يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ .

وَلَمْ أُحْسِنِ اللَّعِبَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، فَقَدْ كانَتْ أفْكاري مُشَتَّتَةً لِلْغايَةِ ، فَلَمْ أسْتَطِعِ التَّرْكيزَ في وَرَقِ اللَّعِبِ ؛ إذْ كانَتْ شُكوكي في أولئِكَ الرِّجالِ لا تَزالُ قائِمَةً ، وَكانوا يَعْرِفونَ ذلِكَ بِطَبيعَةِ

الحالِ . وَأخَذْتُ أتطَلَّعُ إلى وُجوهِهِمُ المَرَّةَ تِلْوَ المَرَّة ، وَلكِنَّني لَمْ أتعرَّفْ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَبْدُ عَلَيْهِمْ أيُّ اخْتِلافٍ ، وَلكِنَّني كُنْتُ واثِقًا بِأنَّهُمْ مُخْتَلِفونَ . وَفكَّرْتُ مَرَّةً أخرى ، وَقُلْتُ لِنَفْسي : « آهٍ ، يا بيتر ! »

وَفَجْأةً لاحَظْتُ شيْئًا ، فَقَدْ وَضَعَ الرَّجُلُ العَجوزُ أوْراقَ اللَّعِبِ على المِنْضَدَةِ لِيَتَناوَلَ بَعْضَ العَصيرِ ، وَمالَ بِظَهْرِ مَقْعَدِهِ إلى الخَلْفِ، وَأخَذَ يَحُكُّ أُذُنَهُ اليُمْنى .

وَتَذَكَّرْتُ – في الحالِ – المَزْرَعَةَ الاسْكُتْلَنْدِيَّةَ ، فَقَدْ كُنْتُ واقِفًا أمامَهُ هُناكَ ، بَعْدَ أنْ رَوَيْتُ لَهُ حِكايَتي ، وَكانَ جالِسًا الجِلْسَةَ نَفْسَها ، وَكانَ يَحُكُّ أُذُنَهُ كَذلِكَ ، لَقَدْ كانَ هذا حادِثًا بَسيطًا ، وَلكِنَّني تَذَكَّرْتُهُ بِوُضوحٍ تامٍّ .

وَانْقَشَعَتِ الغَشاوَةُ مِنْ أمامِ عَيْنَيَّ ، وَبَدا كُلُّ شَيْءٍ واضِحًا مَرَّةً أخْرى ، وَتَعَرَّفْتُ على الرِّجالِ الثَّلاثَةِ في الحالِ . وَتَبَدَّلَتْ وُجوهُهُمْ فَجْأةً ، وَعَرَفْتُ كُلَّ أسْرارِهِمْ .

كانَ الشّابُّ الأسْوَدُ الشَّعْرِ هُوَ الَّذي قَتَلَ اسْكَدَر . وَكُنْتُ لا أزالُ ألْعَبُ البريدْجَ مَعَهُ ، غَيْرَ أنَّ نَظَراتِ عَيْنَيْهِ أصْبَحَتْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ بارِدَةً وَقاسِيَةً .

وَتَبَدَّلَ حالُ البَدينِ أيْضًا ، وَلَمْ يَعُدْ ذا وَجْهٍ واحِدٍ ، بَلْ أصْبَحَ لَهُ مِئَةُ وَجْهٍ ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أنْ يَكونَ هُوَ الَّذي انْتَحَلَ شَخْصِيَّةَ اللّورد ألْوا اللَّيْلَةَ السّابِقَةَ .

وَكانَ مِنَ الواضِحِ أنَّ الرَّجُلَ العَجوزَ هُوَ زَعيمُ المُجْرِمينَ . وَكانَ صُلْبًا كَالصَّخْرِ ، هادِئًا بِلا خَوْفٍ . وَتَذَكَّرْتُ كَلِماتِ اسْكَدَر : « لَوْ رَأيْتَ عَيْنَيْهِ ، يا هَنّاي ، فَلَنْ تَنْساهُما أبَدًا ! » وَكانَ ذلِكَ صَحيحًا ؛ إذْ لا يَنْبَغي أنْ أنْساهُما أبَدًا .

وَ واصَلْنا اللَّعِبَ ، وَلكِنَّ قَلْبي كانَ مَليئًا بِالكَراهِيَةِ لِدَرَجَةِ أنَّهُ عِنْدَما تَحَدَّثَ إلَيَّ الرَّجُلُ النَّحيفُ ؛ تَعَذَّرَ عَلَيَّ أنْ أجيبَهُ .

قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ : « بوب ! انْظُرْ إلى السّاعَةِ . سَيَفوتُكَ القِطارُ إذا لَمْ تُسْرِعْ . » ثُمَّ الْتَفَتَ إلَيَّ قائِلاً : « لا بُدَّ أنْ يَعودَ بوب إلى لَنْدَن اللَّيْلَةَ . » وَكانَ الصَّوْتُ مُزَيَّفًا تَمامًا مِثْلَ وُجوهِهِمْ .

قُلْتُ : « أنا آسِفٌ ؛ إذْ لَنْ يَعودَ اللَّيْلَةَ ! »

صاحَ الشّابُّ : « لِمَ لا ؟ يَجِبُ أنْ أذْهَبَ ، وَسَأُعْطيكَ عُنْواني. »

« لا ! يَجِبُ أنْ تَبْقى هُنا . »

وَلَعَلَّ هذا المَوْقِفَ أثارَهُمْ ؛ فَقَدْ حاوَلوا خِداعي ، وَلكِنَّ الخُدْعَةَ

فَشِلَتْ . وَلَمْ يَعُدْ أمامَهُمْ إلا فُرْصَةٌ واحِدَةٌ فَقَطْ ، وَقَدِ انْتَهَزَها الرَّجُلُ العَجوزُ .

قالَ : « حَسَنٌ ، اِقْبِضْ عَلَيَّ أنا ، يا سَيِّدُ هَنّاي ، وَدَعِ ابْنَ أخي يَذْهَبْ . أ يُرْضيكَ هذا ؟ »

صِحْتُ أنادي اسْكيف .

وفَجْأةً انْطَفَأَتِ الأنْوارُ في الحالِ ، وَقَبَضَتْ عَلَيَّ أذْرُعٌ قَوِيَّةٌ ، وَعَجَزْتُ عَنِ الحَرَكَةِ .

وَصاحَ صَوْتٌ بِالألْمانِيَّةِ : « بِسُرْعَةٍ ، يا فرانْز ، إلى القارِبِ ! إلى القارِبِ ! »

وَنَظَرْتُ مِنَ النّافِذَةِ ، فَرَأَيْتُ اثْنَيْنِ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ يَجْرِيانِ عَبْرَ الحَديقَةِ . وَقَفَزَ الشّابُّ النَّحيفُ مِنَ النّافِذَةِ ، وَأَخَذَ يَجْري صَوْبَ الدَّرَجاتِ . وَفَجْأةً امْتَلأَتِ الحُجْرَةُ بِالرِّجالِ ، وَأَطْلَقَ سَراحي . وَقَبَضْتُ عَلى العَجوزِ وَشَلَلْتُ حَرَكَتَهُ ، وَانْقَضَّ اسْكيف وَشُرْطِيٌّ آخَرُ عَلى الرَّجُلِ البَدينِ ، وَأُضيئَتِ الأنْوارُ .

وَنَظَرْنا مِنَ النّافِذَةِ مَرَّةً ثانِيَةً ، فَرَأَيْنا فرانْز قَدْ وَصَلَ إلى الدَّرَجاتِ قَبْلَ الشُّرْطِيَّيْنِ ، وَفَتَحَ البَوّابَةَ الَّتي انْغَلَقَتْ خَلْفَهُ . وَلَمْ يَسْتَطِع

الشُّرْطِيّانِ أنْ يَتْبَعاهُ . وَانْتَظَرْنا عِدَّةَ دَقائِقَ .

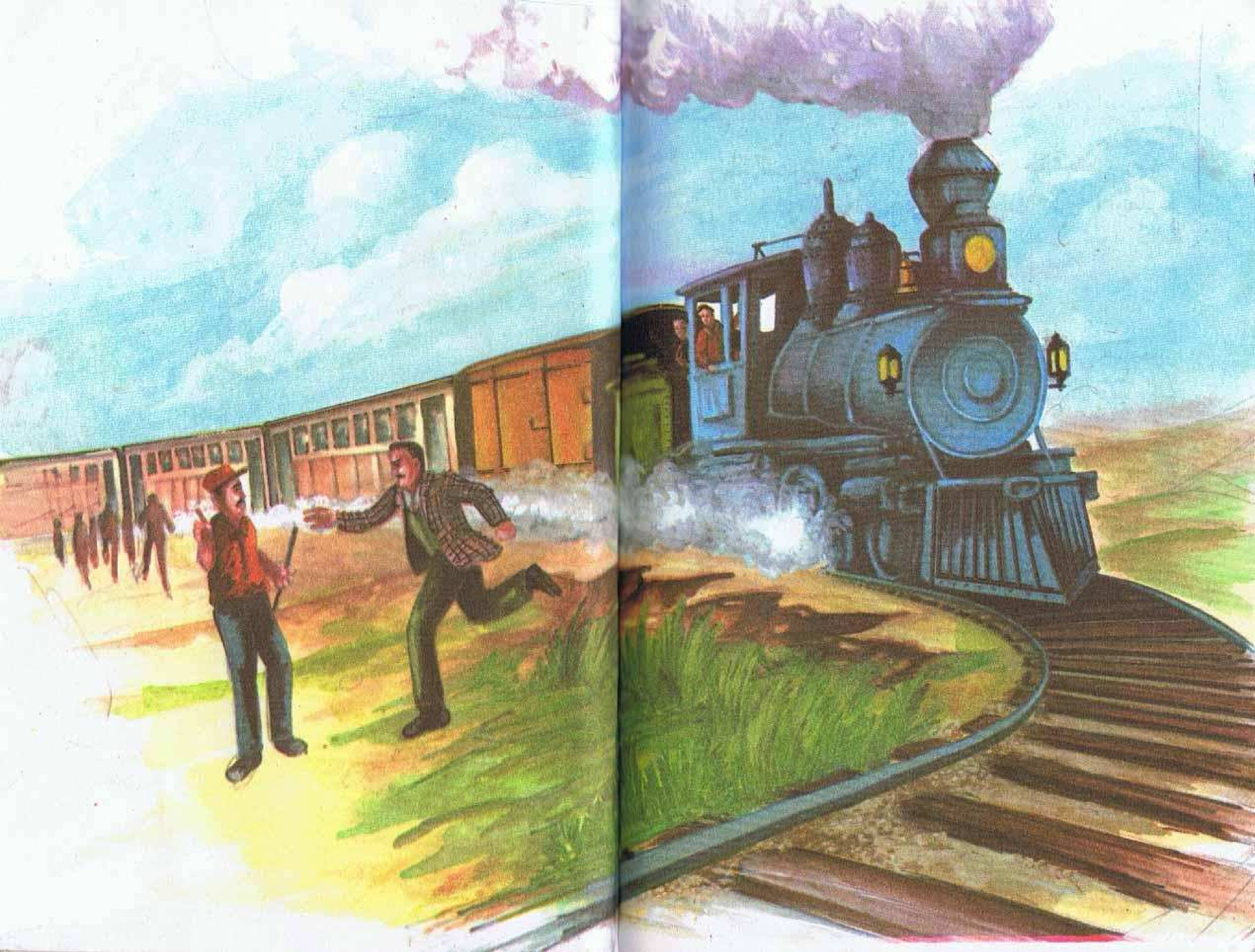
وَفَجْأةً أفْلَتَ مِنّي الرَّجُلُ العَجوزُ ، وَانْدَفَعَ ناحِيَةَ الحائِطِ ، وَضَغَطَ عَلى زِرٍّ صَغيرٍ ، فَارْتَفَعَ دَوِيٌّ هائِلٌ خَلْفَ المَنْزِلِ ، وَتَطايَرَتِ الدَّرَجاتُ في الهَواءِ وَسْطَ سَحابَةٍ مِنَ الغُبارِ .

صِحْتُ : « ديناميت ! لَقَدْ دَمَّروا الدَّرَجاتِ ! »

وَكانَ الرَّجُلُ العَجوزُ يَنْظُرُ إلَيَّ وَيَضْحَكُ . وَلَمَعَ في عَيْنَيْهِ بَريقٌ مُخيفٌ ، وَصاحَ قائِلاً : « إنَّهُ في أمانٍ ، لَنْ تَسْتَطيعَ أنْ تَتْبَعَهُ ، لَقَدْ ذَهَبَ ، لَقَدْ فازَ . » وَرَدَّدَ كَلامَهُ بِالألْمانِيَّةِ .

وَأَمْسَكَ اثْنانِ مِنَ الضُّبّاطِ بِالرَّجُلِ العَجوزِ مِنْ ذِراعَيْهِ ، وَ وَجَّهْتُ إلَيْهِ كَلِماتي الأخيرَةَ : « إنَّ فرانْز لَمْ يَفُزْ بِشَيْءٍ ، وَسَوْفَ يَصِلُ إلى اليَخْتِ أرِيادْني بِسَلامَةٍ تامَّةٍ ، وَأنا مُتَأَكِّدٌ مِنْ ذلِكَ . وَلكِنَّ اليَخْتَ تَحْتَ سَيْطَرَتِنا مُنْذُ ساعَةٍ ! »

إنَّ العالَمَ كُلَّهُ يَعْرِفُ أنَّ الحَرْبَ انْدَلَعَتْ في بِدايَةِ أغُسْطُس عام ١٩١٤ ، وَكانَ هذا بَعْدَ سِتَّةِ أسابيعَ مِنْ مُساعَدَتي في القَبْضِ عَلى هؤلاءِ الجَواسيسِ الألْمانِ الثَّلاثَةِ . وَخَدَمْتُ كَضابِطٍ في الجَيْشِ البَريطانِيِّ ، وَلكِنّي أعْتَقِدُ أنَّ أفْضَلَ عَمَلٍ قُمْتُ بِهِ ، أنْجَزْتُهُ قَبْلَ الحَرْبِ .



المغامرات المثيرة

١ - مغامرة في الأدغال
٢ - مغامرة في الفضاء
٣ - مغامرة أسيرين
٤ - مغامرة في الجزيرة الخضراء
٥ - مغامرة على الشاطئ
٦ - الجاسوس الطائر
٧ - لصوص الطريق
٨ - حمد الغواص الشجاع
٩ - اللصان الغبيان
١٠ - مطاردة لصوص السيارات
١١ - مغامرات السندباد البحري
١٢ - لعبة خطرة
١٣ - الحشرة الذهبية وقصص أخرى
١٤ - اللؤلؤة السوداء
١٥ - سر الجزيرة
١٦ - مغامرة في النهر
١٧ - إميل والمخبرون السريون
١٨ - شبح الحديقة وقصص أخرى
١٩ - سر الدرجات التسع والثلاثين



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم الكمبيوتر 01 C 198219